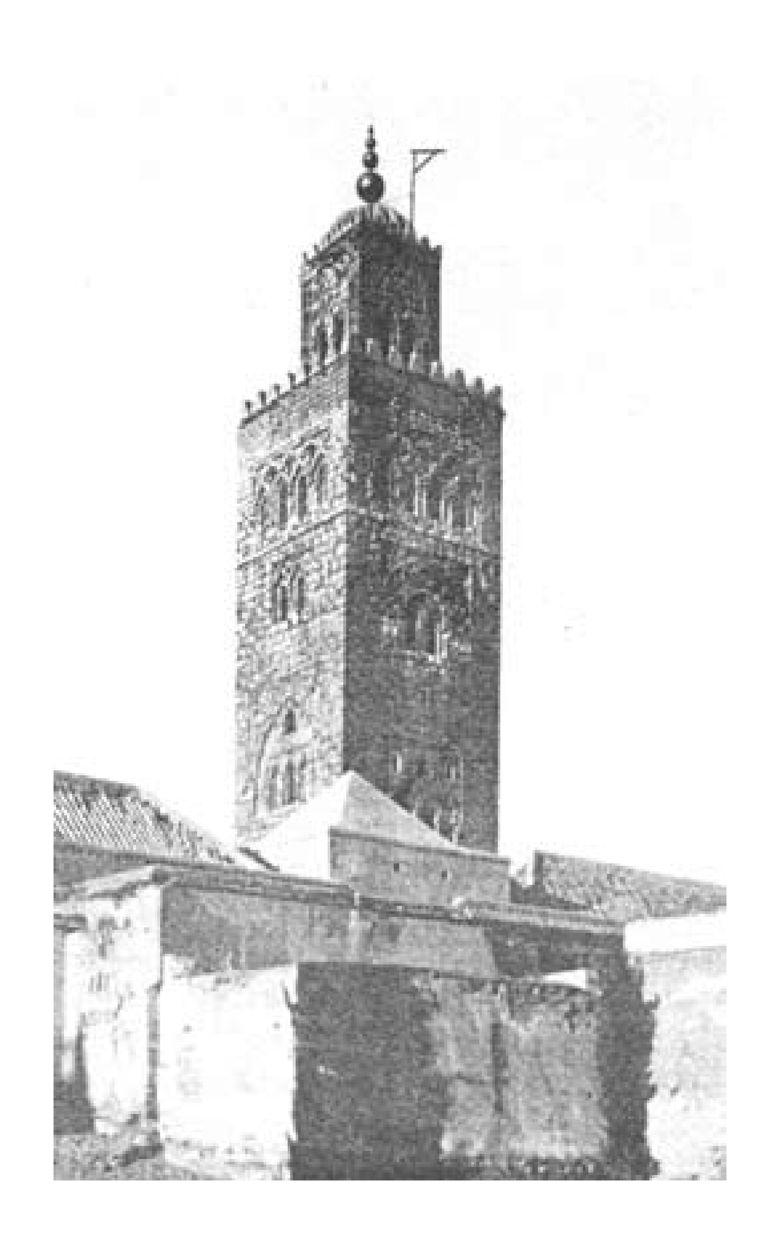
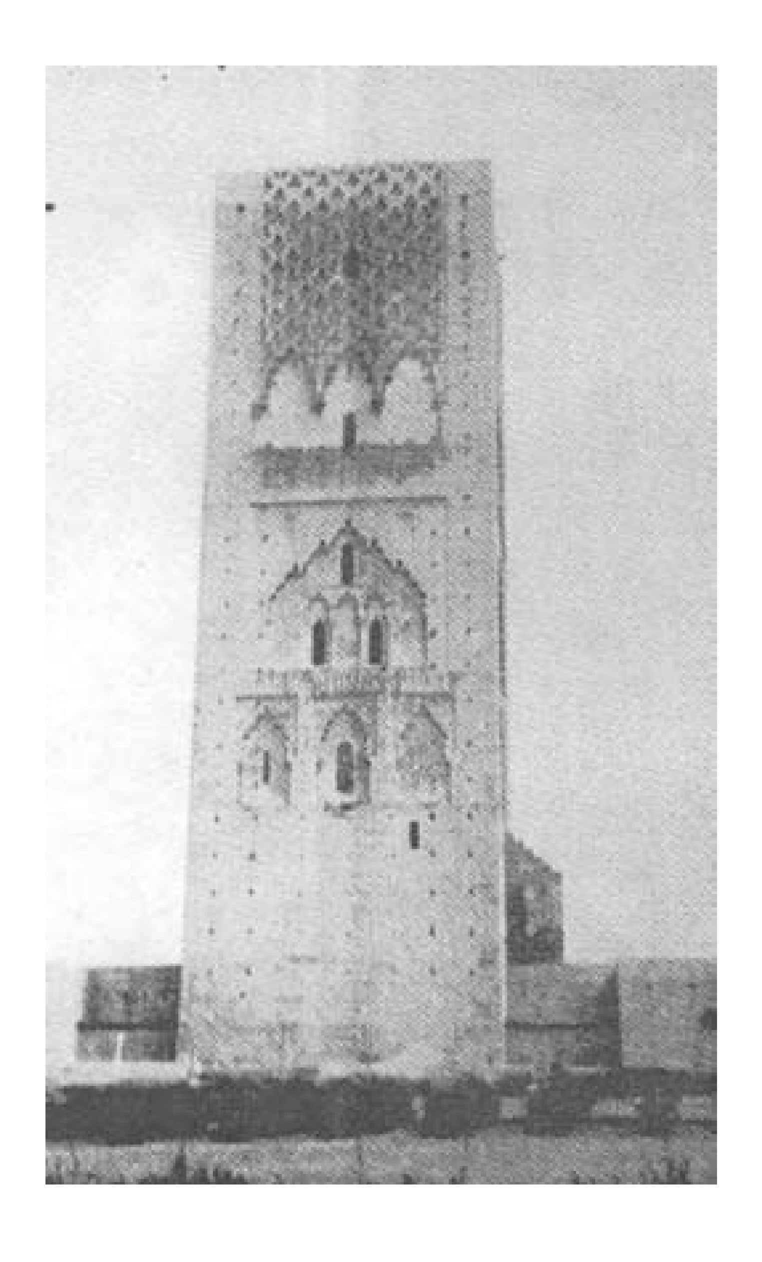
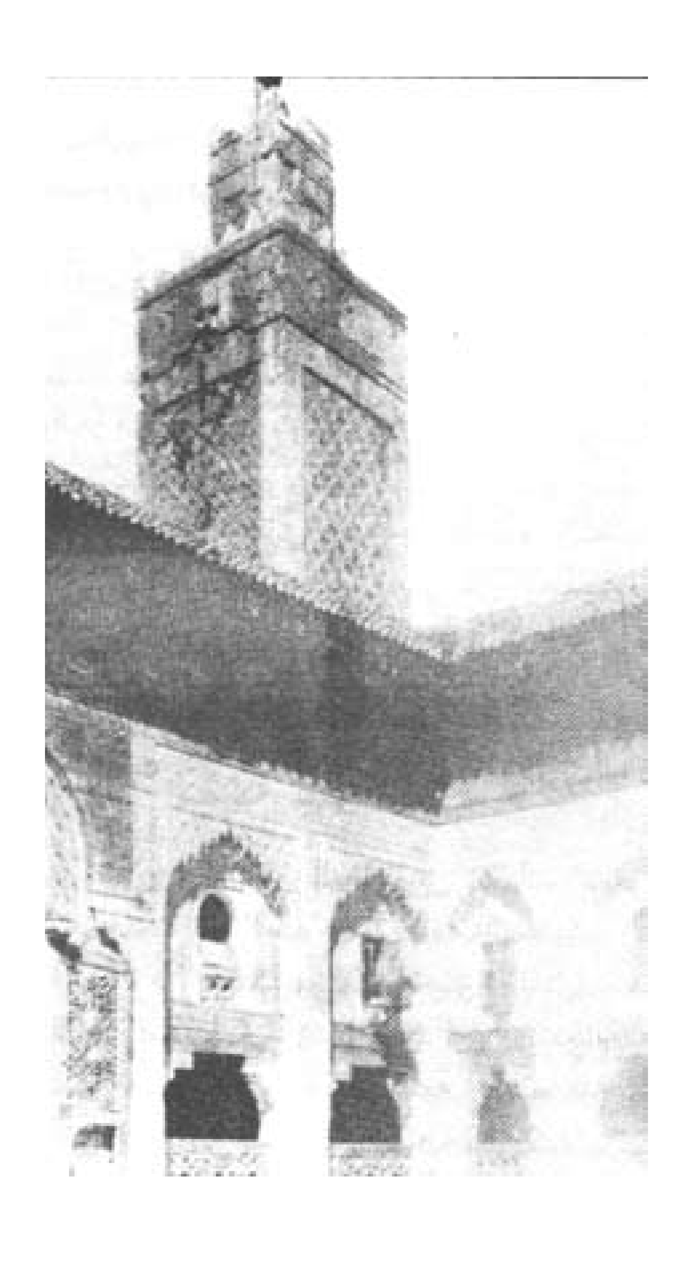
الثقافة الأمازيغية وثقافات الأمازيغيين.

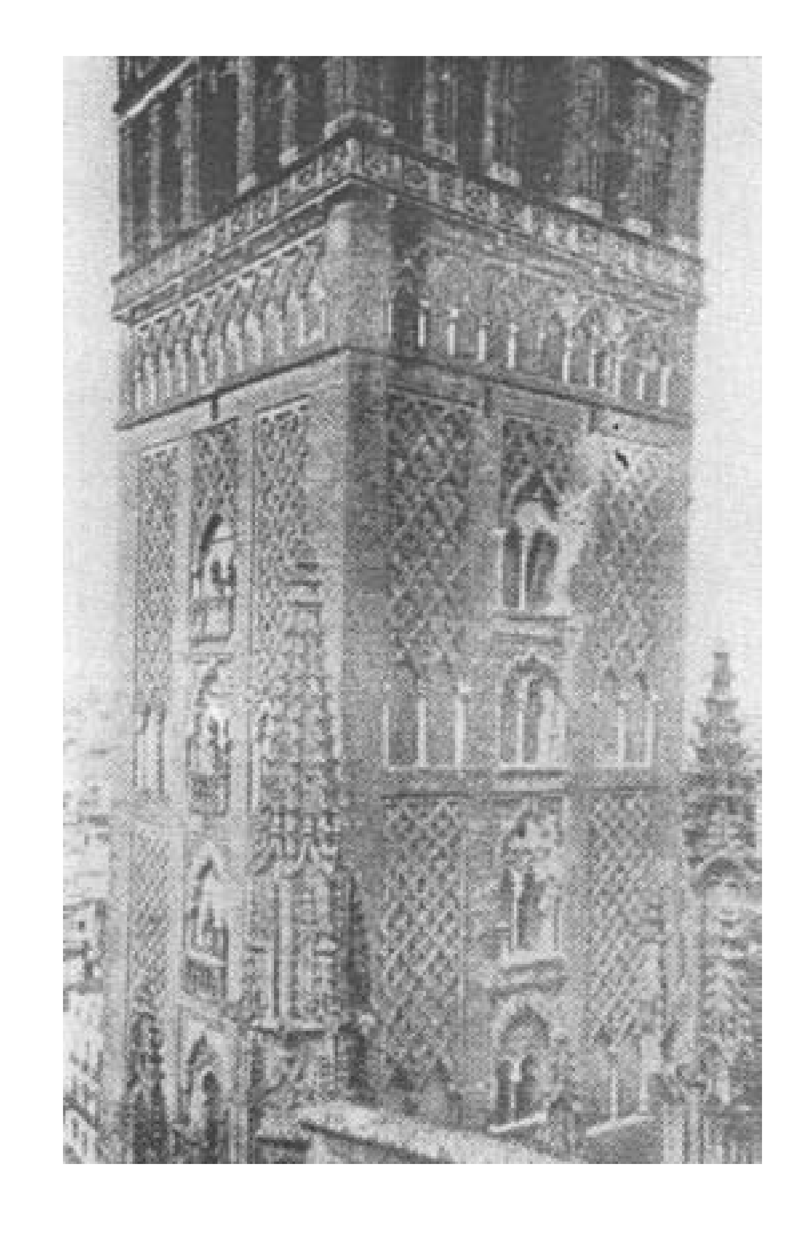
كثيرا ما كتب وقيل إن» البربر «لم ينشئوا قط ثقافة ذاتية يختصون بها. يعتبر هذا الحكم صائبا من له تصور تقليدي لمفهوم الثقافة، بحيث يجعله ينحصر في حيِّز المآثر الأدبية المكتوبة، ويعتبره غير صائب من له تصور شمولي أنثروبولوجي عصري لمفهوم الثقافة، بحيث يرى أن التقاليد الاجتماعية والاختيارات والنزعات السياسية، والفنون بمختلف أنواعها، كالمعمار والرقص والغناء، والأدب الشفوي المروي جيلا عن جيل، من شعر وقصص وأمثال سائرة، يرى أن ذلك كله ثقافة، بالاضافة إلى اللغة نفسها، بطبيعة الحال، وما تنفرد به من مميزات معجمية وصرفية ونحوية واشتقاقية. والواقع أن للأمازيغيين ثقافة خاصة بهم توارثوها عبر العصور منذ آلاف السنين، يصعب على الباحث أن يتتبع مراحل تطورها فيما يخص الجوانب المعتمدة للكتابة، لكنه يستطيع أن يشخص بسهولة كل الجوانب الأخرى، ولابد في هذا الصدد من التنبيه إلى أن الثقافة الأمازيغية لم تنحصر، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، في ما هو خاص بهم متوارث عندهم،











بل كانت دائما» ثقافة مفتوحة «غير منغلقة على نفسها، ولكن بالضرورة لا بمحض الاختيار. ولذا ساهم» البربر «مساهمة مهمة في تشييد أركان الحضارات والثقافات الكبرى التي تعاقبت على شواطئ البحر المتوسط ابتداء من أواسط الألف الأول قبل الميلاد. أما سبب تقوقع ثقافتهم الذاتية فمزدوج، أو هو في الواقع سببان. أولهما هو نمط عيشهم المطبوع بالبداوة. وسنشرح فيما بعد عوامل بداوتهم. وثانيهما أن لغتهم لم ينزل بها كتاب، فلم يخدمها دافع ديني قط، كما خدمت الدوافع الدينية العبرية والعربية، وبدرجة أدنى اليونانية واللاتينية. وقد تفطن لهذه الظاهرة حاميم الغماري المتنبي إذ حاول، في أوائل القرن الرابع الهجري، أن يعارض القرآن في لغة أجداده، كما فعل من قبله صالح بن طريف البرغواطي المصمودي، في أوائل القرن الثاني الهجري.

لثقافة الأمازيغيين إذن شقان، أحدهما خاص بهم، هو رصيدهم الأول المتوارث؛ بعض عناصره شبه مجمدة لاتزال محافظة على أشكالها التي نشأت عليها أول نشأة في غابر الأزمان، كالمعمار والزخرف في الزربية والخزف والوشم وواجهات المباني؛ وبعضها يحتمل في وجوده أنه تطور عبر العصور، لكنه احتفظ مع ذلك بطابعه الأمازيغي المتميز، كاللغة والأدب الشفوي والرقص والغناء والتقاليد الاجتماعية والسياسية. وشق ثقافتهم الثاني هو ما أخذوا عن الثقافات الأخرى: عن الفينيقية واليونانية واللاتينية والعربية الاسلامية (والفرنسية والاسبانية)، وما أسهموا به في بلورة تلك الثقافات نفسها .

1 - الثقافة الأمازيغية الأصلية المتوارثة :

أ - اللغة "البربرية":

من المعلوم أن عقليات الشعوب لا تتطور إلا تطورا بطيئا جدا، لاتغير منها الانقلابات والصدمات إلا ما هو على السطح، ومن المعلوم أن اللغات هي التي تصوغ العقليات ما دامت تعمل في حقلها الأصلي لم تنقل عنه (Pour une sociologie du langage). وكل من يعترف بصحة هذه الأطروحة التاريخية الاجتماعية يدرك أن اللغة الأمازيغية من أهم العوامل الحضارية والثقافية التي كيفت الروح المغربية والبيئة الطبيعية التي نشأت فيها، وقَولَبت الفكر المغربي في كثير من جوانبه، طوال آلاف السنين، وبالتالي شكلت البنية التحتية للشخصية المغربية الاسلامية، أو لما سُمي بالانسية المغربية على غرار الانسية الأوربية. ومما يمكن لدارس اللغة الأمازيغية في العمق أن يستنتجه، أنها تستمد عبقريتها من تفاعلها مع طينة أفريقية الشمالية وتجاوبها معها، حتى إن جوانب معينة من البحث العلمي المتخصص تستوجب على الباحث إلماما بالأمازيغية، تستوجبه على المؤرخ والسوسيولوجي والجغرافي والنباتي والجيولوجي، واللغوي المقارن .

واللغة» البربرية «لغة قائمة بذاتها، ليست» لهجة «متفرعة عن لغة أخرى، ولها هي لهجاتها المتفرعة عنها (Boukous, Bulletin, 10..16) المنتشرة في المغرب والجزائر وليبيا وجنوبي تونس وموريتانيا ومالي والنيجر(Langue

et littérature..108,110, Encyclop. Berbère, IV, 563).

وهي لهجات تلتقي في أصل واحد بصورة واضحة، لا في معطياتها النظرية فحسب، ولكن حتى في معطياتها المتصلة بالممارسة والاستعمال. لقد كتب الباحث »المتمزغ« » أنضري باصي.André Basset «في الموضوع ما يلي:» ينتقل (الباحث) من لهجة إلى لهجة دون أن يحس بأنه ينتقل». كتب هذا سنة 1929 (La langue berbère, p. IX). ثم أضاف بعد عشرين عاما من مواصلة البحث، قائلا:» إن بنية اللغة الأمازيغية وعناصرها وأشكالها الصرفية تتسم بالوحدة إلى درجة أنه إن كنت تعرف حق المعرفة لهجة واحدة منها استطعت في ظرف أسابيع أن تتعلم أية لهجة أخرى، تدلك على ذلك التجربة، إذ اللغة هي اللغة نفسها. ولقد عجبت لذلك...» (Revue le Monde non chrétien, n° 11 juillet-sept, 1949, p 10 et 11...).

وتتجلى وحدة اللغة الأمازيغية في الزمن أيضا، لأن بطء التطور الحضاري ساعد على استقرار المعطيات اللغوية (Basset, 1949, p 11) بحيث يمكن القول إن الأمازيغية لو يُعنى بها العناية الكافية، ستساعد مؤرخي العصر القديم خاصة في تعميق أبحاثهم. أما انتماؤها من وجهة نظر» اللسانيين «فقد بينه» مارسيل كوهن، Marcel Cohen «في أطروحته وفيما تبعها من مؤلفاته انطلاقا من سنة 1924، إذ برهن على أنها فرع من المجموعة الحامية السامية. وقد صارت منذ أواخر القرن التاسع عشر محط اهتمام لدى اللغويين المعنيين بتطور اللغات وبنواميس ذلك التطور، نظرا لحيويتها رغم اعتمادها على

الشفوية وحدها (Les Origines) Science et vie, 52 à 63). (...berbères, p 113).

والواقع أن اللغة الأمازيغية لاتزال حية، محافظة على كيانها الذاتي الذي لا يتجلى بوضوح تام وبكل عناصره إلاّ لمن كلف نفسه قليلا من الاهتمام باللهجات وما بينها من التداخل والتكامل، متجها وجهة التماس العوامل الموحدة، لا وجهة التماس العوامل المفرقة بينها كما كان يفعل عدد من» الباحثين «الفرنسيين. واللغة الأمازيغية في وضعها الحالي، أي بصفتها لغة حية يتخاطب بها الناس، في تلقائية وعفوية، قابلة للانتعاش والنمو والازدهار، لاسيما أن لها نظاما اشتقاقيا جد مرن يتفاعل فيه الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر مع النحت والتركيب المزجي تفاعلا يضاعف إمكانات الخلق المعجمي اليسير المنال. وبدراسة هذا النظام في تفاصيله سيتمكن الخبراء من فك ألغاز النقوش القديمة التي استغلق أمرها عليهم حتى الآن، ومن تسليط بعض الأضواء على خفايا تاريخ أفريقية الشمالية .

هذه اللغة لها شعراؤها الذين يتغنون بها (إماريرن، واحدهم أمارير، وإمذيازن، واحدهم أمذياز)، ولها قصاصها الذين يقصون على الأطفال أقاصيصهم، ما لم تدخل التلفزة البيوتات لتستحوذ على أذهان الأطفال بما تحمله إليهم من صور ومن معلومات في لغات أخرى يعسر عليهم فهمها ولها أمثالها التي يتمثل بها، ولها فصاحتها الخاصة بها. ولها ضعفها الذي لم يفارقها حتى اليوم رغم المحاولات، ألا وهو اعتمادها الشفويّة

دون الكتابة. فلم يُقدَّر التدوين من جراء ذلك إلا لعدد ضئيل من مآثرها الأدبية. أما الباقي فإنه ضاع في طيات النسيان، بعد ان ردده إثر نشأته جيل أو جيلان أو ثلاثة أجيال في أحسن الحالات. ومما دُوِّن نذكر على سبيل المثال شعر سيدي حمو السوسي المتعدد الأغراض، الذي يرجع عهده إلى القرن الثاني عشر الهجري (عمر أمرير) والشعر الديني التعليمي لمحمد أوزال من القرن الثالث عشره وشعر السي موحند القبائلي من القرن التاسع عشر الميلادي (Les Isfra de si Mohand) وهو شعر ذو نفس فلسفي. وشعر تاوكَرات (Taougrat) الملحمي من أوائل القرن العشرين، وعدد من القصائد المتفرقة لشعراء مختلفين من القرن العشرين أيضا. ومن كبار الشعراء الذين لهم صيت في الجهة التي ينتمون إليها نذكر سليمان عازم، وسليمان الشابي وفاطمة عمروش ايت منصور، وموحند ومحاند والحاج رابح القبائليين، وعبد الرحمان ومسعود المتوكَي. وقد أصبح الشباب الأمازيغيون يهتمون بتدوين الأدب الأمازيغي الجديد وبالتنقيب عن القديم منه، بمحض وسائلهم، ويؤلفون تأليفا إنشائيا يعد بالنمو، نذكر من مؤلفاتهم» وُسان صميدنين، الأيام الباردة «لمومن علي الصافي، و«ئسكراف، القيود «لمحمد مستاوي. من هؤلاء الشباب من يكتب بالحروف العربية، ومنهم من يكتب بالحروف اللاتينية، خاصة في الجزائر، لأن اللغة الأمازيغية تخلت عن أبجديتها الذاتية منذ دخول» البربر «في الاسلام، حسب ما تدل عليه القرائن، ولم يحتفظ بها إلا قبائل التوارك غير أن حروفا منها لا تزال تُدرج في زخارف الزربية المغربية .

ب ـ الكتابة الأمازيغية القديمة:

حسب ما أثبته البحث إلى حد الآن، لم ينشأ على أرض القارة الافريقية كلها إلا أبجديتان اثنتان ـ بصرف النظر عن الهيروغليفات ـ هما الأبجدية الأمازيغية والأبجدية الأثيوبية (Berbères, Camps, 275). وقد أثبت البحث أن ظهور الحروف الأمازيغية الأولى يرجع عهده إلى فجر التاريخ، وأن مجال انتشارها يمتد من شمالي السودان إلى الجزر الخالدات غربا وصقلية والأندلس شمالا (Histoire du développement...II, 26; Berbères, Camps, 277). تسمى هذه الحروف» تيفيناغ«، وقد أُوِّلت هذه التسمية تأويلات مختلفة، أسرعها إلى الذهن هو أن الكلمة مشتقة من» فينيق، فينيقيا «وما إلى ذلك. قد يطابق ذلك اصل هذه التسمية، وربما لا علاقة له به، ولكن المحقق هو أن الكتابة الأمازيغية غير منقولة عنها، بل رجح الاعتقاد بأنها والفينيقية تنتميان إلى نماذج جد قديمة لها علاقة بالحروف التي اكتشفت في جنوبي الجزيرة العربية. وقد أشرنا إلى هذه العلاقة فيما سلف. لقد كانت الأبجدية الأمازيغية في المراحل الأولى من وجودها تتكون من» حروف صامتة.«Consonnes . هي المعنية بـ «تيفيناغ«. ويعتقد أن عدد تلك الحروف الصامتة كان 16 حرفا (Les Origines berbères, p 61). وأنه صار 23 حرفا في عهد المملكة المازيلية النوميدية (Berbères, Camps, 277). وقد أضيفت إلى الحروف الصامتة في زمن متأخر» حروف صائتة.«Voyelles سميت» تيدَّباكين«. تقابل الفتحة والكسرة والضمة. وتسمى الأبجدية في مجموعها» أكَامك «كان

الأمازيغيون القدماء يكتبون بهذه الحروف على جدران الكهوف وعلى الصخور، من الأعلى إلى الأسفل، في أول عهدهم بالكتابة. ثم كتبوا في جميع الاتجاهات، ودام ذلك الوضع إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أخذ التوارك يستقرون على الكَتْب من اليمين إلى اليسار تقليدا لما هو معمول به في العربية .

وقد ترك لنا القدماء على الصخور والصفائح الحجرية، ما يربو على ألف نقش (Marcy, Chabot, Reygasse) وتركوا عددا من النقوش التذكارية في تونس والجزائر خاصة، فيها ما هو مصحوب بترجمته اللاتينية أو الفينيقية. وقد قام الباحث» جورج مارسي، «Georges Marcy بمحاولة جادة من أجل شرحها. لكن معظم النقوش الأمازيغية القديمة لا تزال تنتظر اختصاصيين يشترط فيهم أن يتقنوا الأمازيغية أولا، ثم إحدى اللغات الميتة الآتية: الفينيقية أو اليونانية أو اللاتينية. يوجد في المغرب نماذج من النقوش على الصخر في «عزيب نيكّيس « و«ياكَور « بالأطلس الكبير، ونقش» صفيحة أزرو «ونقش» صفيحة تيفلت(Chabot) «. وهنا يجب التساؤل: هل سمّيت مدينة» تيفلت «بهذا الاسم على طريق المصادفة ليس غير؟ لأن »تيفلت «في الأمازيغية هي» الصفيحة «الحجرية بالذات، حسب ما احتفظت به اللهجة التركَية من معاني الألفاظ الأصلية. نقش بالحروف الأمازيغية متوغل في القدم، يوجد بالمكان المسمى "عزيب نـ يكيس" في الأطلس الكبير الفارس الأمازيغيّ الرافع لقرص الشمس المشعّة؛ وعلى يمينه نقش بحروف "تيفيناغ" ويوجد في الصحراء المغربية في نواحي سمارا حسب شاهد عيان ـ هو الدكتور حمداتي ماء

العينين ـ نصوص كاملة بحروف» تيفيناغ «نقشت في عهد ما على صفحات صخور كبيرة. وهناك في المغرب أيضا صفائح أخرى معروفة: «صفيحة أجرا» المعروضة في متحف تيطاون، وصفيحة» عين الجمعة «وصفيحة» سيدي سليمان «(متحف الرباط)... وعلى سبيل المثال نورد هنا أحد السطور الثلاثة من النص المنقوش على »صفيحة تيفلت «(متحف وليلي) :

هذه النقوش الأمازيغية القديمة كانت أكثر انتشارا في البوادي والأرياف منها في المدن.(Camps) أينبغي أن يعتبر ذلك سببا لتراجع الكتابة» البربرية «أمام البونية فاللاتينية فالعربية؟ أم ينبغي أن يعتبر نتيجة لتوازي التمدن مع استخدام الحرف البوني، ثم اللاتيني، ثم العربي؟ ومما هو ملحوظ منذ عقدين على وجه التقريب هو أن جماعات من المثقفين يحاولون أن يحيوا الحرف الأمازيغي القديم، وقد توصلوا إلى صنع آلات للرقانة به، لم يسمح ببيعها في الأسواق .

ج ـ الفنون الأمازيغية التعبيرية:

مع أن اللغة الأمازيغية جردها الزمان من كتابتها، ومع أن الناطقين بها لم يعنوا كثيرا بتدوين إنتاجاتها الأدبية، ومع أنها لم تكن قط لغة تلقين أو تعليم، ولم تكن موضوع بحث وتحليل إلا ابتداء من القرن الماضي، فقد ظلت حية في أفريقية الشمالية كلها والصحراء الكبرى إلى يومنا هذا، إما في مناطق شاسعة يتخاطب بها في كل مكان، وإما في »جزر لغوية شاهدة«. أي في أماكن محدودة المساحة تكون عبارة عن مواطن لقبائل صغيرة،

أو عن مجموعة قرى متجاورة، أو قرية منفردة، أو واحة من الواحات، أو حتى عن بيت واحد أو متجر يوجد وسط بيوتات أو متاجر في قلب مدينة كبيرة مستعربة. تتجلى حيوية اللغة الأمازيغية في التلقائية التي يتكلمها الناس بها، وفي الأغاني والقصائد التي يروجها شعراؤها. وقد تعصب أحد أولئك الشعراء لـ» لغة أمه «إلى درجة أنه زعم بأن الغزل يستحيل بسواها.

إذ قال :

في لُغَة أُمي

بُحْتُ إليكِ، حَبيبتي، بِسِرّي !

كيف يَفعَل، يا تُرَى مَنْ يَجهلُ لُغة الأمازيغ ؟

أَ بِكَلمَة حُب، أَبَدا، لا يَنْطِقُ ؟

وهو قول يذكرنا بقول أحد شيوخ الأدب العربي القدماء «إن الهجو باللغة العربية لأحبّ إلي من المدح بالفارسية«!.

أغراض الشعر الأمازيغي متنوعة، وكذلك أصنافه وموازينه (انظر:Renisio, Laoust, Maâmmri, De Foucauld ، وعمر أمرير، ومحمد شفيق) وقد ظهرت في الثلاثين سنة الأخيرة حركة تجديد لقوالب العشر في مناطق مختلفة، لاسيما في الشعر المتغنى به. أخذ مغنون شباب يقلدون أنماط الموسيقى العصرية، أمثال العمّوري في المغرب، وإيدير، وجمال علاّم، في الجزائر. وقد انتشر صيت المجموعات الغنائية الآتية:» أوسمان = البروق، جمع برق «و «إزنزارن = الأشعة « و«أدراو = المأدبة «في

المغرب، و«الجرجورة «في الجزائر .

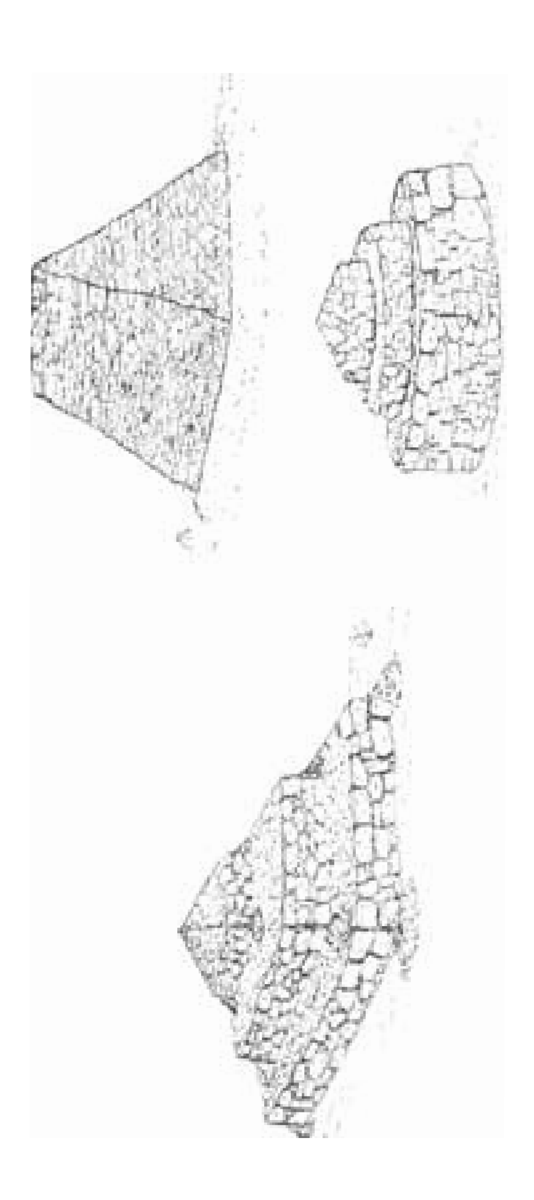
ومن تقاليد الأمازيغيين العريقة الرقص الجماعي المصحوب بالغناء. وهو الذي قال فيه أحد الخبراء الغربيين» إنه من إيحاء تموجات السنابل... أو الكثبان في الصحراء، او أعراف الجبال في الآفاق» (Tableau de la musique.... نقلا عن Paul Hector) والرقص الأمازيغي أنواع كثيرة، أهمها» أحيذوس «و«أحواش«. أما رقصات» الشيخات «فليست من التراث الأمازيغي في شيء، وإنما هي» بدعة «أقحمت فيه على يد» قيّاد «الاستعمار، استوردوها من المحلات المشبوهة التي تكاثرت في المدن المغربية طيلة عهد» الحماية«. وليس من المبالغة أن يقال إن الرقص الأمازيغي التقليدي هو الرقص الكلاسيكي المغربي. وليس للمغرب رقص غيره له ميزة تستحق الاعتبار يُرشّح بها لأن يمثل الشخصية المغربية. لكن هذا الرقص صنّفه الفرنسيون »فولكلورا،folklore «. فتبعهم في ذلك المسؤولون الوطنيون عن الفن، فلم يُقيَّض له من ينهض به. ولذا صار يفقد رونقه الأصلي ويفقد تلقائيته النابعة من روح الابتكار الجماعية العاملة بدوافعها الذاتية.

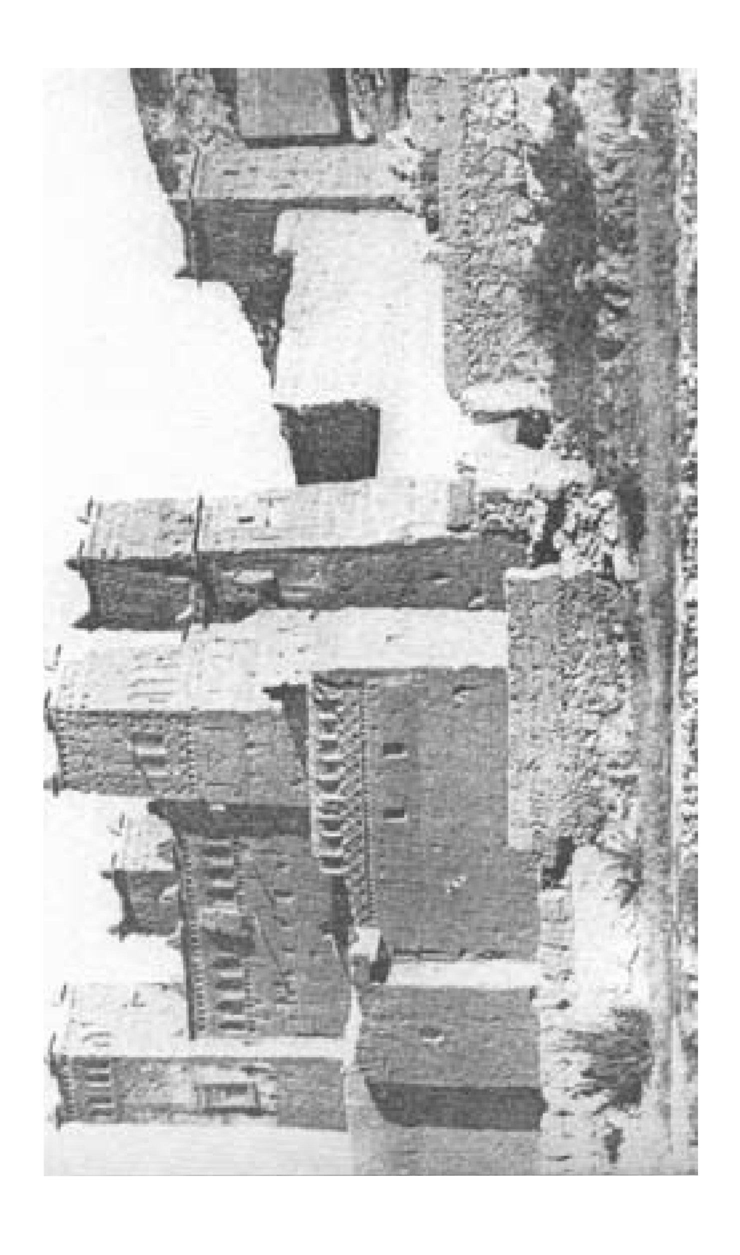
د ــ المعمار والزخرف الأمازيغيان :

الآثار المعمارية الأمازيغية ضاربة في القدم، يرجع عهد عناصرها الأولى إلى ما قبل التاريخ. تلك العناصر الأولى عبارة عن أضرحة بسيطة، بني كل واحد منها على شكل ركام من الحجارة يسمى الآن عند التوارك» أدبني ج إدبنيين«. وقد تطورت

فيمـا بعـد تصاميم تلك الأضرحـة إلى أن صارت أشـكالها إما هرميـة مربعـة القواعـد، وإما مسـتديرة القاعـدة مدرجة من الأسـفل إلى الأعلى في طبقات. هذه الأضرحة الأخيرة تسـمى »بازينا« وهي مبنية من الحجارة المتراصة، وأصل اسمها حسب ما نرجح راجع إلى كون بُنيانها غير معقود بملاط، لأن مادة» بزن «في اللغة الأمازيغية تفيد انعدام الإدام مع الخبز، أو انعدام الملاط مع حجارة المبنى؛ فالخبز الجاف يسمى» أبازين«. وكذلك الحائط المبني من الحجارة المنضّدة دون تمليط (Berbères, Camps, 84,85).

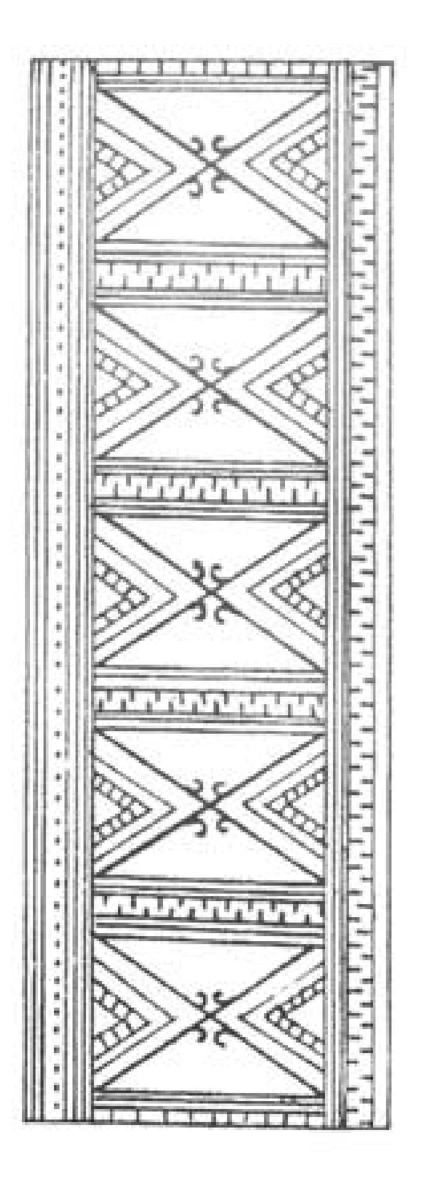
وفي مراحـل تاريخية أخرى صـارت الأضرحة عبـارة عن مبان شـاهقة في شـكل منارات مكونـة من أربع طبقـات أو خمس، علياهـا أصغر حجما من سـفلاها، أو عبارة عـن مبان مخروطية الشكل أسطوانية القاعدة يبلغ ارتفاعها ثلاثين مترا فأزيد، ويبلغ قطر دائرتها حوالي سـتين مترا؛ وهي مبنية من الحجارة المنحوتة أيضا. هذه الأضرحة، بنوعيها منسـوبة إلـى الملوك الأمازيغيين القدمـاء، يوجد من نوعها الأول اثنـان في تونس الحالية، أحدهما بمدينة دوكّة (ثوكّا القديمة)، والآخر بشـمتو (سـيميثو القديمة)، وواحـد بالجزائـر في المكان المسـمى» الخروب«. ويوجـد من نوعها الثانـي اثنان بالجزائر في كل من» قبر النصرانية « و«مّيدراسـن«، وبقايـا مجموعـات منهـا بالمغرب في سـهل سـايس، قرب عين تاوجضات، وفي سـهل الغرب قرب مدينة سـيدي سـليمان (تل سـيدي سـليمان.L'Afrique du Nord, 70) ولهذا النوع الأخير مـن الأضرحة الأمازيغيـة القديمة خصوصيـات معمارية تجعله منفردا في تاريخ المباني الأثرية . ومن الأنماط المعمارية الأمازيغية













التـي نفذت إلـى عصرنا من أعماق التاريخ تلـك التي تبنى على غرارهـا» القصور «الجماعيـة («إغرمان «التـي مفردها» إغرم«) و«القصبـات « («تيغرمين «التي مفردها» تيغرمت«) المنتشـرة في الأطلس الكبيـر، ومخازن الحبوب العموميـة («إكودار «التي مفردهـا» أكَادير، «Greniers Citadelles»). وقد نفذت إلينا معها أنواع من الزخرف، كلها عبارة عن تشـكيلات هندسـية أساسها الخط المسـتقيم، تزين بهـا واجهات المباني السـالفة الذكر، في الأطلـس الكبيـر والواحـات، وتزين بهـا الزرابي والحلـي الفضية والآنيـة الطينية والخزفية. هذا، ثم إن المعمار المغربي الاسـلامي مطبـوع هو أيضا بـروح الفن الأمازيغـي الميالة إلى البسـاطة وتوخي المتانة، يتجلى ذلك أحسـن ما يتجلى في أشكال المنارات المربعـة القاعدة، عامـة، وفي منـارات الموحدين الثـلاث خاصة: منارة الكتبية بمراكش، ومنارة حسـان بالربـاط، ومنارة» الخيرالدا «بإشبيلية . منارة " الخيرالدة " بإشبيلية، وهي من منشأت الدولة الموحدية.

وإذا أضفنـا إلى المعمـار والزخرف قائمة بالرسـوم التمثيلية الكثيـرة التـي رسـمت بالنقـوش أو الألـوان علـى الصخور في الكهـوف والجبال والصحاري منذ العهـد الحجري الجديد، تكتمل لدينـا صـورة الفن الأمازيغـي القديم، وما اتسـم بـه وجوده من اسـتمرارية نادرة. نخص بالذكر من الرسـوم المنقوشـة: العربة ذات الأفـراس الأربعـة (وادي أزكَـزا، بـتـاركَا، وتاركَا هـي الفزان)، وصياد الأرويّ (تينزولين، جنوبيّ المغرب)، والفارس حامل الشمس المشـعة (أبيزار، بجبـال القبائـل بالجزائر)، والفـارس المحارب (في

منطقة أيير التركَية، بمالي). ومن الرسوم التي صورت بالألوان: الفرسين المتجابهين (إقليم بشار بالجزائر) والنساء المتبرّجات، والصياد حامل الرمح، والرقصات البهلوانية حول ثور (بتاسيلي نـ اجّر، صخرة الثور، في جبال التواركَ بالصحراء الجزائرية).

2 ــ ثقافات الأمازيغيين، أو مفعول «المثاقفة».

أـ البونية ثقافة فينيقية أمازيغية:

لأمر ما كان الرومان يفرقون في التسمية بين الفينيقيين الأصلاء (Phoenicius) والبونيين (Punicus) والافارقة (Afri، واحدهمAfer . راجع تعليق Desanges على Plinius، ص 226). إن السبب في نظر المختصين هو أن الجاليات الفينيقية التي استوطنت المواقع الساحلية على ضفة البحر المتوسط من برقة إلى طنجة وعلى جزء من شاطئ المحيط الأطلنتي، وحولتها إلى مراكز تجارية، اختلطت شيئا فشيئا بالأهالي الأمازيغيين - بحكم التعامل السلمي الموصول على مدى قرون، والمتجرد عن كل تعصب ديني - إلى درجة أنها أصبحت تتميز في مقومات حياتها المادية والمعنوية، عن فينيقيي فينيقيا وعن الأهالي الأفارقة، أي» البربر «الذين بقوا على طبيعتهم الاولى. البونيون إذن جيل من الناس امتزجت فيهم الشخصية الأمازيغية بالشخصية الفينيقية امتزاجا بطيئا هادئا، بما تحمله كل واحدة منهما من ميزات، فكان لذلك انعكاسات على ثقافة قرطاجة وغيرها من المدن الساحلية والقريبة من الساحل، وتكونت لغة» عامية «بين الفينيقية والأمازيغية (L'Afrique du Nord, 59...63). فإن كان

الباحثون الأول غفلوا عن هذه الحقيقة فلأن الارث البوني المدون مكتوب بالحروف الفينيقية، وبالحروف الفينيقية مجردة من كل حركة صائتة (Voyelles) . ولأنهم كانوا يغفُلون عن توظيف معطيات اللغة» البربرية «في تشخيص الألفاظ والأسماء (Les Inscriptions libyques,5...16). ولهذا أصبحت الآن أسماء، كان يعتقد أنها قرئت على أوجهها الصحيحة، مثار شك وتساؤل، أكثرها شهرة اسم الإلهة» تانيت«. أهو كذلك» تانيت «أم هو» تينيت «أم »تينّيت» (La Carthage 175, Berbères, 115...). وما اسم هذه الإلهة، بصيغته» البربرية«، في قراءتيه أو قراءاته، إلا دليل على أن قرطاجة كانت تدين بدين الأمازيغيين القدماء، بما أنها بوأت» تانيت «مكانة الصدارة في معابدها وجعلتها هي» ربة المدينة» (La Carthage punique, 175). وقد ورد في نصوص قديمة ما يستفاد منه أن الكهنة وسدنة المعابد في قرطاجة كانوا أمازيغيين (Silius Italicus, 8) في معظمهم . ولدينا في أفريقية الشمالية نموذج تاريخي آخر من نماذج المصاهرة الحضارية الموفقة، ألا وهو نموذج انصهار العرب و» البربر «معا في بوتقة العقيدة الاسلامية .

ب ــ إسهام ملك أمازيغي قديم في إغناء الثقافة اليونانية :

لم يكن الأمازيغيون يجاورون اليونان مباشرة، ولم يكونوا دائمي الاتصال بهم. لكن ثقافة اليونان فرضت نفسها على حوض المتوسط كله، ابتداء من القرن الخامس ق.م. بفضل سمو الفكر الاغريقي آن ذاك. فلا غرابة إذن أن يكون الملك المازيلي»

ماسـينيزا «يسـتقدم إلى عاصمته» قيرطا «العلماء والفنانين مـن أثينـا. ولا غرابـة أن ينبغ في شـتى فـروع العلـم والمعرفة حفيده. ربيـب روما، يوبا الثاني، وأن يصنّف باليونانية، في التاريخ والجغرافيـا والفلسـفة والأدب وفقه اللغة المقـارن. فتعجّبَ من نبوغـه »فلوتارخـوس.Plutarkhos «. ومن كون» بربـري نوميدي (يصبـح) أكثـر الأدباء ظرفـا ورهافة حـس (,Les Africains, IX 146). ونصـب لـه الاثينيون تمثالا في أحـد مراكزهم الثقافية (Gsell + Les Berbers, I, 49, 50) تقديرا لكفاءته الفكرية. وقد نقل عنه علماء العصر القديم، وحسده معاصروه منهم ونَفِسُوا عليه نبوغه، بصفته» بربريا.barbarus «. وكأن نفاسـتهم عليه تسـربت إلى نفس المؤرخ الفرنسـي Stéphane Gsell، إذ ما فتئ Gsell يحـاول أن يغض من قيمة أعمال يوبا الفكرية، فتبعه في ذلـك تلامذته من الأوربيين الذين أرخـوا للمغرب الكبير في عهد الاسـتعمار الفرنسـي (Les Africains, IX, 157,58,61). كمـا تبعـوه في تحاملهـم على أبيه يوبـا الأول من أجـل حرصه على سـيادة مملكتـه. والدافع عنـد Gsell ومن تبعوه هـو أنهم كانوا يعتبرون الفرنسـيين ورثة للرومان في أفريقية الشـمالية، ويرون أن» الأهالـي، Les indigènes «لايمكـن أن يكونوا إلا »أهالي «في الماضي والحاضر على السواء، بما أُشرِبَته الكلمة في لغتهم إذّاك من معاني الاحتقار.

ومـن مؤلفـات يوبا الثاني نخـص بالذكر كتابـه المعنون ب» ليبيـكا«، لأنه عني فيـه ببلاد الأمازيغيين. ومـن الطريف أن يوبا أشـار في ذلك الكتـاب إلى قصة» الأسـد الحقـود «التي لاتزال



الجدات فـي بوادينا، إلى يومنـا هذا، يقصصنها علـى أحفادهن باللغـة» البربريـة «في ليالي السـمر من فصل الشـتاء. إن في ذلـك لدلالة على أن الأدب الشـفوي قد يُحفـظ خيرا مما يُحفظ المـدوّن. ولقد كان يوبـا الثاني ذا ذوق فني رفيع، حسـب ما أجمع عليه المؤرخون لعهده (Les Africains 161) قصة الأسد (Gsell, VIII, 263)، وقـد لزم ذكره ذكر طبيبـه» أوفوربوس،Euphorbus «الذي اكتشـف ما لأحد النباتات المحلية من قدرة على تنشـيط الفكر وترويح النفس. وباسـم ذلك الطبيب يسمى ذلك النبات، فـي اللغـات الافرنجية إلـى اليـوم: ...euphorbia, euphorbe.... وهـو الفربيون، أحد أنـواع اليتوع أو التيوع المعـروف بـ «تاناغوت «و«تاناخوت «في الأمازيغية.

ج ــ أمازيغيـون قدماء يتصدرون مصاف المفكرين والأدباء اللاتينيين:

نتـج مـن مفعـول »المثاقفـة،L'acculturation « المفروضة مـن قبـل رومـا علـى افريقيـة الشـمالية أن نبغ فـي الكتابة باللاتينيـة أجيال متتابعة من الأمازيغيين، فأسـهموا إسـهاما مهما في إغناء الفكـر والأدب الرومانيين، حتى من قبل أن تكون الأمبراطورية قد بسطت نفوذها على مواطن» البربر«. بما أن أول أديب أمازيغـي الأصل لاتيني اللغة عاش فـي النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، اي قبل نزول الرومان في أفريقية.

- أديبان أمازيغيان من عهد الوثنية: أولهما» تيرنشـي آفر، أو تيرنتيوس آفر، «Terentius Afer (185؟ ــ 159 ق.م.).

لقد كان مـن عواقب الحرب البونية الثانيـة وانهزام قرطاجة فيهـا، أن حُمِـل إلـى روما صبـي أمازيغي أسـير، فاتخـذه أحد أعضاء مجلس الشـيوخ غلامـا له، ثم أعتقه. فسـمي الطفل باسـم سـيده ««Terentius، بالاضافـة إلى نسـبه «آفـر،Afer «أي الأفريقـي. فتضلع مـن معارف زمنه، فـي اللغتين اليونانية واللاتينيـة، إلـى أن فاضـت قريحته وهـو ابن العشـرين، فألف سلسلة من ست مسـرحيات، كان يطالع الجمهور بواحدة منها في كل سـنة، مـا بـين 166 و160 ق.م. فصارت له شـهرة كبيرة دفعـة واحدة، ونال الجوائز. فحسـده الحسـاد واتهموه بالسـرقة الأدبيـة، فدافع عن نفسـه بما كان له من قـوة. فأنصفه التاريخ مـن بعد، ورد إليه نقاد العصور المتعاقبـة اعتباره كاملا وبينوا أن تأثيـره في الأدب المسـرحي بقي ظاهرا إلى حدود القرن السـابع عشـر. ومن مؤلفاته» الاخوة،Fratres «و» معذّب نفسـه، «Meus carnifex و»الخصي،Eunuchus «. وهو صاحب القولة المشـهورة» أنا إنسـان، لايخفـى عني أي شـيء مما هو إنساني!«. ومن إفراطه في حب الأدب أنه مات حزنا بأرض اليونان، بعد أن ضيع في البحر مخطوطات له، وهـو ابن الثلاثـين (Les Grands Ecrivains du Monde, 238).

وثانيهما» أبولاي، Apuleius, Apulée «.

وُلد» أبولاي، أو أفولاي «بنوميديا في أوائل القرن الثاني، حوالي 125، وتوفـي حوالـي 170 م. بعـد أن تعلم بأثينا رجـع إلى بلده. فاتّهم هناك بممارسـة السـحر. فدافع عن نفسه بصلابة، وألف فـي الموضوع كتابـا عنوانه» في السـحر،«Magicae . وبعد ذلك

تفرغ للتأليف الجاد، إلى أن أصدر كتابا، في أحد عشر جزءا، وبه وضعه تاريخ الفكر في مصاف كبار الكتاب العالميين الخالدين. في كتابه ذاك، «التقمصات Les Métamorphoses» اتخذ الرواية الطويلة النفس مطية لوصف الأوضاع الاجتماعية وانتقادها في سخرية حينا، وفي شدة وصرامة أحيانا. فدافع عن المستضعفين، وطرق بكيفية غير مباشرة موضوعات فلسفية، مظهرا لنزعته الصوفية، ولتشوفه إلى الديانات المشرقية النشأة ولولوعه بعبادة الالاهة المصرية» إزيس، « Esi, Isis. فوصف بـ» النوميدي المزعج «. ولكن اعترف له بصدق التعبير وبالبراعة في فني القصص والكلام. وكان هو نفسه يصرّح بأنّه تأثر في عمق بالفكر اليوناني (Les Grands Ecrivains du Monde, 370).

- كاتبان مسيحيان أمازيغيان في عهد المحنة:

من أبرز الكتاب الأمازيغيين القدماء الذين قاموا بالدعوة للمسيحية واتخذوها سلاحا لمقاومة الاستعمار الروماني - إذ كانت روما لاتزال وثنية -» تارتولي،«Tertullianus و»أرنوبي.Arnobius «. وقد عاشا كلاهما في» عهد المحنة« إذ كان النصارى يُعذّبون، ولم يكن يدافع بالقلم عن النصرانية إلا» الأفارقة» (Histoire du développement...II,762,763.).

- تارتولي Tertullianus (حوالي 155 ــ حوالي 225 م.):

نشأ على الوثنية، ثم تنصر وتحمس تحمسا كبيرا للدفاع عن دينه الجديد، ودعا إلى التمسك بتعاليم المسيح القويمة وإلى

التخلي عن روح الطبقية الكنسية. وحرض الناس على التخلص من الخدمة العسكرية في الجيش الروماني. يعتبر كتابه» دفاعا عن الدين.Apologeticus «إحدى اللبنات الأولى الأساسية التي دشن بها الأدب المسيحي المتخصص في معالجة القضايا الخلقية في ضوء العقيدة. صدر ذلك الكتاب سنة 197م (Les Grands Ecrivains du Monde, 370).

- أرنوبي الأكبر :Arnobius

ولد هذا الكاتب بإحدى قرى نوميديا في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. فدرس علم الكلام إلى أن صار أستاذا في تلك المادة. ثم تنصر وهو كهل، وألف كتابا واحدا بعنوان» ضدا على الوثنيين. Adversus nationes «. أصدره سنة 300 ميلادية. تحامل فيه على عبادة الأصنام، وراهن على أن الايمان بالله ضمان للفوز. كما راهن من بعده أبو العلاء المعري و« باسكال.Pascal «الفرنسي. وقد أهله عمله في سبيل عقيدته لأن يُعدّ عند المسيحيين من» آباء الكنيسة» (Dictionnaire français-latin).

- القديس أوغوستينوس Augustinus يساند روما، بصفته عمدة للكنيسة الرسمية:

ولد »أوغوستينوس «في قرية» تاكَاست «بنوميديا سنة 354م، ومات بعنّابة سنة 430م، إذ كانت تلك المدينة محاصرة من قِبَل الوندال.لم يتنصر إلا وفي عمره 33 عاما. كان من قبل أستاذا للبلاغة، فدرّس في قريته، ثم في قرطاجة، وروما وميلانو.

وبعد اعتناقه المسيحية رقي الدرجات الكنَسِيّة في ظرف تسع سنوات فقط، فأصبح أسقفا سنة 396م، وكرّس حياته لتنظيم الكنيسة الأفريقية وللتأليف الديني. وقد ترك للمسيحيين مؤلفات لاتزال حتى اليوم مرجعا لهم، يعتبرونها قاعدة صلدة لفلسفة أقانيمهم الثلاثة، منها» مدينة الله.La Cité de Dieu « و»اعترافات التوبة.Les Confessions «و» المراسلات.Les Lettres «. كان تبشيره تبشيرا رسميا يسير في خط كنيسة روما القيصرية. ولذا عارضه» الدوناتيون «وعلى رأسهم سمّيه »أوغوستينوس» الدوناتي الذي عُرِض على القضاء في أوائل القرن الخامس الميلادي (Prosopographie,102).

لقد كان» القديس «أغوستينوس «يتعاطف مع» الأفارقة«، أي مع الأمازيغيين ويدافع عن هُويّتهم (L'Afrique du Nord, 349). ولكن في نطاق العمل التبشيري الرسمي. ومما يلفت النظر أنه هو المؤلف» الأفريقي اللاتيني «الوحيد الذي ضُبط تاريخ ولادته، كما ضُبط تاريخ وفاته. والسبب في نظرنا هو أن أحد أبويه كان رومانيا، كما هو معلوم. وليس من المستبعد أن تكون «هُجْنَتُهُ «هي سبب موالاته للسلطة الرومانية السياسية الدينية.

د ـ الانتاج الفكري الأمازيغي رافدا للثقافة الاسلامية:

لم يندمج قط الأمازيغيون اندماجا كليا في إطار حضارة معينة كما اندمجوا في إطار الحضارة الاسلامية، وذلك لأسباب لا

مجال لشرحها في هذه العجالة. ويمكن القول بأن ذلك الاندماج الكلي تم بصفة نهائية في أوائل العهد الموحدي، لما اندثرت البقايا الأخيرة من دولة البرغواطيين، أي بعد عهد الفتوحات الاسلامية الأولى بخمسة قرون على وجه التقريب. وقد كان اندماجهم، في جملته، نتيجة لعلمهم الذاتي، بتعاون مع أفراد أو جماعات قليلة من المشارقة الذين قدموا أفريقية الشمالية مسالمين، خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. فبعدما حملت جنودهم راية الاسلام إلى قلب أوربا الغربية، وبعدما تخلصوا من السيطرة السياسية المشرقية، اتجهت أنظارهم إلى أنفسهم أولا، ثم إلى غربي أفريقية السوداء، ابتداء من عهد المرابطين. فعلى أيديهم أسلمت القبائل الأولى من الزنوج في وادي السينغال، حيث لاتزال الصلوات الخمس تسمى إلى اليوم باسمائها» البربرية «.

ولكن، ليس المقصود هنا هو الاحاطة بتاريخ» البربر «بعد دخولهم في الاسلام، ولا الاحاطة بإسهاماتهم في بلورة الثقافة الاسلامية، لأن ثلاثة عشر قرنا من التفاني في خدمة الدين الحنيف، فكريا وأدبيا، لايمكن أن تقتضب في سطور أو فقرات. ولكن المقصود هو استشفاف نوعية الاسهام الأمازيغي من خلال مؤلفات مَنْ تُرجِمَ لهم في غير لبس بأنهم» بربر «.

ومن هذه الزاوية تكون الملاحظة الأولى التي يسجلها التحليل هي أن الأمازيغيين نشّطوا حركات التصوف. فكأن نزعة التأملات الاستبطانية متأصلة في نفوسهم منذ القدم، كما لوحظ في مؤلفات» تارنتيوس «و»أبولاي «في عهد الوثنية الأولى،ثم في مؤلفات» أرنوبي« و«تارتولي» المسيحيين (Les

Grands Ecrivains..). ونكتفي من العهد الاسلامي بذكر آثار أبي الحسن الشاذلي الغماري (ت 1258/656) صاحب» مجموعة الأحزاب «الذائع الصيت في العالم الاسلامي كله (مع التذكير بأن المتنبئين حاميم وعاصم بن جميل وأبي الطواجن ينتمون إلى قبيلة غمارة بالذات). فمريدالشاذلية أبي عبد الله الجزولي (ت 1465/870) الذي ترك للمغاربة مصنفه المشهور في الصلوات على النبي» دليل الخيرات«. لقد اثر الشاذلي والجزولي تأثيرا كبيرا في الفكر الصوفي الاسلامي. ولا يخفى على المؤرخين دور الصوفيين الأمازيغيين الآخرين الذين لايمكن حصر عددهم هنا. إلا أننا نرى من الضروري تخصيص ثلاثة منهم بالذكر لما لهم من شهرة في الأوساط الشعبية، ألا وهم ابو العباس بن العريف الصنهاجي، دفين مراكش (1088/481 ـ 1141/536) وأبو شعيب الدكالي، دفين أزمور، وابو يعزى، دفين الأطلس المتوسط .

وبعد الصوفية، يسترعي الانتباه الفقهاء الأمازيغيو الأصل، من حيث عددهم، سواء عند المالكية أو عند الخوارج الاباضية. فلنكتف بذكر فقهاء المالكية الأمازيغيين البارزين، أمثال وجّاج، وعبد الله بن ياسين، ومحمد بن تومرت، وابن أبي زيد القيرواني النفزاوي (922/310 ـ 996/386) صاحب الرسالة المشهورة، والامام المكودي، وابن عرفة الورغمّي (1316/716 ـ 1401/803)، وابن مرزوق العجيسي (1311/711 ـ 1379/781) وأبي العباس أحمد البرنوصي المعروف باسم» زرّوق« (ت 899 هـ) وأبي العباس أحمد الونشريسي (ت 1508/914)، وأحمد بابا الصنهاجي (1556/963 ـ 1627/1036).

وبعد الفقه يلاحظ أن الأمازيغيين ألفوا في النحو العربي وأجادوا التأليف. فتح لهم هذا المجال شيخ النحاة المغاربة عيسى بن عبد العزيز يَلَلْبخت الجزولي (ت 1210/607) تلميذ ابن برّي ومؤلف» المقدمة الجزولية «و«الأمالي«. وتبعه تلميذه هو، أبو الحسن بن معطي الزواوي (1169/564 ـ 1231/628) صاحب» الدرة الألفية في علم العربية «التي استنّ ابن مالك فيما بعد طريقتها التعليمية في إنشاء ألفيّته. وفي إثر الجزولي وابن معطي برز أبو حيان الغرناطي البربري (1256/654 ـ 1344/745)، شارح ألفية ابن مالك المشهور بمقارناته بين اللغات. وبرز أبو عبد الله بن أجرّوم الصنهاجي (ت 1323/723)، فطارت شهرته إلى الآفاق الاسلامية كلها بفضل مصنفه التعليمي» الأجرومية «الذي اعتُمِد في تدريس النحو العربي طوال ستة قرون.

يستخلص من هذا الاستعراض أن» البربر «أسهموا بقسط وافر في بلورة العلوم الاسلامية المتصلة بالدين مباشرة، شأنهم في ذلك شأن باقي الشعوب الاسلامية، لأنهم كانوا كثيري الحرص على صيانة العقيدة واستنباط ما في الأصول من قيم روحية وأحكام شرعية. يؤكد هذا القول سَبْقُ عدد منهم إلى رواية الحديث: نعني عكرمة البربري (24 - 105هـ) الذي كان يُرمى بإضمار انتمائه إلى مذهب الخوارج، ومن نهج نهجه كسابق، وميمون، ومحمد بن موسى (القاموس المحيط: برّ). لم يتميز» البربر «في شيء اذن عن سائر الشعوب الاسلامية في العمل من أجل خدمة الدين أولا وأخيرا. إلا أن الفاحص لما أنتجوه في النحو يجعلهم هم المتخصصين فيما يمكن أن نسميه بيداكوجية

اللغة العربية، إذ هم الذين أرسوا قواعدها بعدما كان الفرس قد أرسوا قواعد لاخراج فقه اللغة العربية إلى الوجود. ولا غرابة في ذلك لأن الفرس و«البربر» معا لم يكونوا يتكلمون العربية بالسليقة... ثم يرى الفاحص لانتاج الأمازيغيين أنهم كتبوا في التاريخ وأغزروا، خاصة في تاريخ المغرب. من مشاهير مؤرخيهم أبوبكر بن علي الصنهاجي البيذق (القرن الخامس الهجري)، وابن عذاري، والجزنائي، وابن غازي الكتامي، والفشتالي، والافراني، والزياني (بتفخيم الزاي وتخفيف الياء)، وأكنسوس، وغيرهم ممن صرحوا ببربريتهم، أو من يرى النقاد المشارقة في عملهم» نزعة بربرية «كابن خلدون. وممن وُفّقوا من الأمازيغيين في تدوين الرحلات نخص بالذكر ابن بطوطة اللواتي وأبا عبد الله العبدري الحيحي، وعبد الله ابا سالم العياشي...

لكن إسهام» البربر «في قرض الشعر ـ العربيّ ـ وفي الأدب الإنشائي بصفة عامة لم يكن ذا وزن كبير بالقياس إلى إنتاج المشارقة، وحتى بالقياس إلى إنتاج العرب الأندلسيين، لا من حيث الحجم والكم، ولا من حيث الجودة والكيف بصورة أخص. ونرى السبب في ذلك هو أن جماهير الأمازيغيين كانوا لايعرفون اللغة العربية، وأن من قُدّر لهم أن يتعلموها كانوا في أغلبيتهم لاينشؤون على الحديث بها عن سليقة، بل كانوا يجنحون في حياتهم اليومية العادية إلى التخاطب باللغة التي رضعوها مع اللبان، وهي الأمازيغية، ولذا برعوا في صناعة الكتابة مادام عملهم يهدف إلى التحليل والاستدلال والاستنباط، كما هو الشأن في الفقه والنحو والتأملات الصوفية الفلسفية، أو

إلى الوصف والسرد، كما هو الشأن في الرحلة والتاريخ. ولم يأتوا بطريف فيما هو إنشاء توليفي صرف، لا في النثر الفني ولا في الشعر. (بناء على هذا الاعتبار، لا يستبعد أن يكون ابن منظور، صاحب» لسان العرب «أمازيغي الأصل، كما تشير إلى ذلك نسبته: الافريقي). وكل من تألق نجمهم شيئا ما في سماء الشعر العربي، من» البربر» قد نشأوا في بيئة لغوية عربية أو قديمة العهد بالاستعراب، كسابق البربري المشرقي النشأة، وابن الزقاق البولوكَيني الأندلسي المولد والموطن، ومدغيس الزاجل، والامام البوصيري المصري المولد والنشيئة...أما الأغلبية من الأمازيغيين الذين تعاطوا القريض وهم منغمسون في مجتمعهم »المغاربي «المطبوع بالبربرة، فلم يفعلوا عن فيض خاطر، ولكن عن إرادة و«سبق إصرار «. ذلك شأن كثير منهم، حتى كبار الفقهاء والكتاب المفكرين أمثال أبي علي الحسن اليوسي ومحمد المختار السوسي . ولذا يمكن القول إن» النبوغ المغربي في الأدب العربي «انحصر طوال العصور في ما هو» انتفاعي «ولم يتجل بوضوح لا في شعر رفيع ولا في نثر فني من الطراز الأعلى. والسبب في ذلك هو بطء حركة الاستعراب» الجماهيري «كما سنبيِّن .

استعراب الأمازيغيين.

النسبي؛ عوامله ومراحله؛ وأسباب بطئه.

إن كان جيل من الفرس المسلمين نبغوا في الأدب الإنشائي بشقيه الشعري والنثري، نبوغا ظاهرا، فلأنهم نشأوا في عواصم البلاغة العربية بالعراق وخالطوا فصحاء العرب وقتئذ كانت العربية لا تزال متشبثة بمقومات فصاحتها الأولى، حيث كان الفتى منهم ينشأ عربي اللسان والجوارح معا، منذ نعومة أظفاره. وذلك ما لم يعرفه» البربر «لا في المغرب حيث كان العرب أقلية قليلة، ولا في الأندلس حيث لم يتيسر التآلف بين الشعوب التي تألف منها المجتمع الاسلامي. فبقدر ما كان اندماج الفرس في الوسط العربي سريعا بعد انهزامهم في القادسية، بقدر ما كان احتكاك الأمازيغيين بالعرب الوافدين على» جزيرة المغرب «احتكاكا شاقا عسيرا على الطرفين كليهما. فبينما كان الفرس يعيشون في أحضان الثقافة العربية الناشئة خلال القرن الأول الهجري، كانت المعارك والمناوشات متتابعة بين جيوش الولاة الأمويين وبين القبائل الأمازيغية. وبينما كانت الدعوة العباسية قائمة في خراسان يتعامل فيها العرب والفرس معاملة ود وتآزر، كان الغليان يسود بلاد المغرب بسبب تعسفات العمال الأمويين.

ولما استولى العباسيون على الخلافة بمساندة قوية من الفرس، كان المغرب قد استقل سياسيا عن المشرق، فكان من الطبيعي ان يستمر الأمازيغيون على حالهم في التخاطب بينهم باللغة الأمازيغية . فطرأ على العقيدة الجديدة في نفوسهم، ما طرأ من الانحرفات الطفيفة أو الخطيرة، وسجل التاريخ من ذلك ما سجله، في شأن البرغواطيين وغمارة خاصة، تلك الانحرافات من وجهة نظر المسلم تعتبر نوعا من الردة، لكنها من وجهة نظر السوسيولوجية التاريخية تعتبر ردود فعل ثقافية صادرة عن غريزة الحفاظ على الكيان الذاتي. ذلك هو مدلول إقامة الشعائر الدينية بالأمازيغية عند برغواطة وعند الغماريين. ولهذا يمكن ان نقول إن حركة الاستعراب لم تنطلق بمجرد دخول» البربر «في الاسلام، ولكنها انطلقت فيما بعد كما سنوضح. ولهذا يصعب التسليم بأن طارق بن زياد خطب في جنده بالعربية، ففهموا عنه بدون وساطة. إنّا نرجّح أن يكون إما خطب فيهم بالعربية وترجم عنه، وإما خطب فيهم بالأمازيغية ونقلت خطبته فيما بعد إلى العربية، مع ما يتحمل ذلك من الزيادة أو النقصان أو التبديل. فإن كان من غير الممكن أن يكون طارق جاهلا للعربية، نظرا لقدم عهده بها في لزومه لمولاه موسى بن نصير، فليس من المحتمل ولا من الممكن أن يكون جنده» البربر« الاثنا عشر ألفا يملكون ـ كلهم أو جلهم ـ ناصية لغة الضاد بحيث يفهمون ما يقول. ومما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن تلك الخطبة المشهورة أُلقيت أصلا بالأمازيغية، كونها أثارت في نفوس أولئك الجند» البربر «حماسة للقتال، حسب ما تفيده الروايات .

إن مــن المؤكد في ضوء ماجريـات التاريخ من عهد عقبة بن نافع إلى قدوم المولى إدريس جبل زرهون، أن حركة الاســتعراب لم تكــن ذات مفعول يذكر، وأنها لم تنطلق في بطء بطيء إلا بعد توليــة قبائل» أوربا «(لا أوربة كما يكتبــه المؤرخون العرب) إدريس الأول سـلطانا عليها. وسـتكون مسيرة الاسـتعراب في المغرب الكبير عامة، وفي المغرب الأقصى خاصة، مسيرة طويلة، بما أنها لم تبلغ مداها ونحن في القرن الخامس عشر الهجري، تمّ منها ما تمّ في مراحل أربع، تميزت أولاها وثانيتها بالبطء والتلقائية، وتميزت ثالثتها بالتسـارع الاضطراري، بينما تميـزت رابعتها وهي الحالية بالتسارع المتزايد المثير لنوع من التمنّع .

1 - المرحلة الاولى في مسيرة الاستعراب.

اسـتغرقت هـذه المرحلـة عهـد الأدارسـة وعهـد المرابطين والعقـود الأولى من عهد الموحدين. في هـذه الحقبة الممتدة من قـدوم إدريس وليلى إلـى وفاة عبد المومن بن علـي الموحدي، على وجـه التقريب، كانت العربية محصورة فـي مجال حضري ضيق تقاسـمها إياه الأمازيغية. كانت السـيادة للعربيـة في أحاديث الأسر الادريسية والأندلسية والقيراونية التي استوطنت مدينة فـاس، مع ترجيح الاحتمال أن أفراد تلك الأسـر، لاسـيما الذكور، كانـوا يضطرون إلى تعلم الأمازيغية بصفتها لغة السـواد من السـكان. وكانت لها السـيادة بطبيعة الحال في المساجد، حيث كانت تقام بها الصلوات الخمس ويتلى القرآن في حلقات الترتيل. وكانـت لها السـيادة في مـا كان يُكتب، على قلتـه آنذاك. هذا في فـاس وربما فـي وليلي وبدرجة أقـل بكثير في المـدن القلائل

الأخرى الموجودة في أقصى شـمالي المغرب فـي ذلك العهد. أما في البوادي حيث كانت تقطن الأغلبية السـاحقة من السكان، لاسـيما النائيـة منها، فلـم تكـن للعربية إلا أصـداء ضعيفة تحملهـا معها الدعوة الاسـلامية المجددة، خاصـة أن تلك الدعوة نفسـها ما كان يمكنهـا الاعتمـاد بالأولويـة إلا علياالأمازيغية. ومن الصعب جـدا أن يُعلم مثلا أكانت خطب الجمعة، في عهد الأدارسـة ومن جاء بعدهم قبل الموحدين، تلقى بالعربية وحدها في معظم المسـاجد، أم كانت تلقى بالأمازيغية أم بهما معا؟... يسمح بهذا السؤال كون الأذان لإعلان الصلاة يلقى بـ» البربرية «في أوائل عهد الموحدين وكون الخليفة عبد المومن بن عليّ يحرر رسالاته الدينية ويخطب في الناس أيام الجُمَع بالأمازيغية، وكون البـلاط الموحدي يعتمـد الأمازيغية لغة للتخاطـب في المجالس (المسـند الصحيح في مآثـر..343، 344). ولايعزب عن الأذهان أن أمير المسلمين يوسف بن تاشـفين نفسه، على تقواه وورعه، لم يكـن يتكلم إلا بالأمازيغية، ولم تكن اسـتهانته لمدح الشـعراء الأندلسيين صادرة إلا عن أمرين، أولهما جهله للعربية، وثانيهما أن مـن تقاليد الأمازيغيين أنهم لايتقبلون المدح إلا على مضض، لاسيما المدح الحضوري .

فبمـا أن التمـدن كان بطيئـا، وأن سـكان البـلاد كانـوا في معظمهم رحّلا أو أشـباه رحّل يتنقلون بين الجبال والسهول وبين الواحـات والنجود والصحـاري، فقد ظلت المناطـق المغربية، في هـذه المرحلة، خارجة عـن مجال النفوذالفعال للغـة العربية، إلا منطقة واحدة، هي التي كانت صلة وصل بين قطبي الإشـعاع

للثقافة العربية، أي بين فاس والأندلس، هي المنطقة المعروفة اليوم باسم» جبالة «. كانت القبائل القاطنة بتلك الجهة قارة السكن منذ قرون، ولذا يمكن الجزم بأنها أخذت تستعرب، ببطء ولكن باستمرار، على حَافتَيِ الطريق الرابطة بين فاس والأندلس، انطلاقا من العهد الذي تمتنت فيه العلاقات بين العدوتين، أي من أواخر القرن العاشر الميلادي الموافقة لأواخر القرن الرابع الهجري، وسنعود فيما بعد إلى نتيجة استعراب» جبالة «كما نشاهدها اليوم.

2 - استعراب المغرب في مرحلته الثانية.

دشن هذه المرحلة، عن غير قصد، عبد المومن الموحدي باستقدامه إلى المغرب (الأقصى) القبائل العربية التي كان الفاطميون من قبل قد أباحوا لها غزو إفريقيا انطلاقا من الصعيد المصري. فلما أخذت تلك القبائل تجوب الأنجاد في المغرب الشرقي والحواشي الصحراوية للأطلسين الكبير والصغير، شدّ وجودها أزر اللغة العربية، لاسيما أنها أخذت تتسرب شيئا فشيئا إلى السهول الأطلنتية وإلى بعض الممرات الفاصلة بين الكتل الأمازيغية الكبرى التي يُتواكل في الدفاع عنها بين تلك الكتل (les Arabes en Berbérie). اذاك أخذت المناطق السهلية الشاطئية تستعرب، في بطء من دون شك ولكن باطراد. خاصة أن قبائل» تامسنا «الأمازيغية كان المرابطون والموحدون قد كسروا شوكتها بقوة، وجعلوها فلولا غير متماسكة، فتقلصت في تلك النواحي رقعة التخاطب بالأمازيغية، وأخذت تنحصر في جزر لغوية مثل ما عرف عن» صنهاجة الذل «في ما حول تيطّ

(مولاي عبد الله أمغار حاليا) و«مازيغن «(وهي الجديدة الحالية) وأزمور، ثم امَّحت، وهكذا استعربت مناطق دكالة والشاوية (أي تامسنا)، و«أزاغار «وهو» الغرب«. ومما يشهد على تداخل الفصائل العربية مع الفصائل «البربرية «في دكالة والشاوية خاصة هو تداخل الألفاظ والتراكيب والتعابير الأمازيغية في اللهجات المحلية. وبتنقل» الجيش «المخزني من منطقة إلى أخرى استوطنت قبائل عربية جزءا من المناطق السهلية الأخرى، عند سفوح الجبال والممرات قرب العاصمتين الكُبريين فاس ومراكش، وتوغلت قبائل أخرى في الصحراء المغربية الغربية وموريتانيا واختلطت هناك ببقايا» زناكَة «(صنهاجة اللمتونيين). وهكذا تضافرت العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية طوال عدة قرون لرسم الخريطة اللغوية التي وجد عليها المغرب عند وقوعه في قبضة الاستعمار الأوربي الفرنسي والاسباني، وهي خريطة تغيرت معالمها في مناطق معينة، بين عهد الموحدين ومطلع القرن العشرين، كما بينا. لكن حركة الاستعراب في المناطق الاخرى ظلت بطيئة كما كانت من قبل، خاصة في الجبال والواحات، سواء في المغرب أو الجزائر، وبالأحرى في قلب الصحراء حيث انعزلت قبائل التواركَ أما في المدن، فإن حركة الاستعراب تسارعت ابتداء من عهد المرينيين، في فاس بالخصوص، لما تضافرت عوامل ثلاثة على تنشيطها: سياسة المرينيين التعليمية، ثم هجرة المسلمين من الأندلس إلى مدن شمالي البلاد، ثم تولي الشرفاء مقاليد الملك، مع العلم بأن السلاطين الشرفاء أنفسهم كانوا إلى عهد قريب يعرفون لهجة» بربرية

«أو أخرى. كان محمد بن عبد الله العلوي» يكلم البربر في لسانهم« (الاستقصاء نقلا عن الزياني) وكذلك الحسن الأول، حسب ما سمعناه من شيوخ قبائل الأطلس المتوسط الذين نشأوا في أواخر عهده، ومن المستبعد أن يكون أعوان المخزن لايقتدون بالسلاطين في الحرص على تعلم «البربرية»، خاصة منهم عمال الأقاليم وقواد الجيش .

3 - المرحلة الثالثة: الاستعراب وسيلة ثقافية لمقاومة الاستعمار الأوربي الاستيطاني.

لما سُلطت على المغرب جيوش الاحتلال في مطلع هذا القرن الميلادي، كان رد الفعل الأول هو المقاومة بالسلاح على المستوى الشعبي، فانتقلت المعارك بسرعة من السهول إلى الجبال، واستمرت هناك المشادّات الحربية بين القبائل ــ الناطقة كلها بالأمازيغية ــ وبين الفرنسيين والاسبان ما لايقل عن ربع قرن. فخرجت القبائل المقاومة من المعمعة، سواء في الريف أو في الأطالس الثلاثة، منهوكة القوى بشريا واقتصاديا. فضعفت من جراء ذلك المكانة الاجتماعية والسياسية التي كانت لها من قبل. وفي أثناء تلك الحقبة بالذات (1912 ـ 1937) ظهرت في المدن البوادر الأولى لقيام حركة وطنية مغربية ترمي إلى تنظيم مقاومة سياسية، بتعبئة المشاعر الدينية على أسس جديدة، كان قد وضعها في المشرق جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لتجديد الفكر الاسلامي، خلال القرن التاسع عشر. وتبلورت في الأذهان الخطوط العريضة لاستراتيجية المقاومة» السياسية ـ الدينية «سنة 1930، عندما استصدر الفرنسيون ما أسموه

بـ «الظهير البربري «في نطاق عملهم الاستعماري المرتكز على مبدإ» فرِّق تسد«. فتطلع الوطنيون إلى معرفة الفكر السلفي المجدِّد، واشرأبت أعناقهم إلى المشرق من أجل استيراده، وأسسوا» المدارس الحرة «سعيا لنشر تعاليمه في أوساط الشباب، وأُصلحت برامج جامعة القرويين. فنشطت بذلك الثقافة العربية الإسلامية نشاطا كبيرا، وساعد على انتشار مضامينها ظهور الصحف المناهضة للظلم الاستعماري. فاهتم المغاربة بالدعوة الاستقلالية، كل على قدر ما يستطيع حسب موقعه الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي. وقويت رغبتهم في تعلم العربية، إذ صار الحافز الديني مدعوما بالحافز الوطني . أضف إلى ذلك أن الشباب أولعوا بالاستماع إلى الأغاني الغرامية المشرقية على أمواج الاذاعة أو من أسطوانات الفونوغراف، وأن الأناشيد المحمِّسة للنضال كانت تستحوذ على مكامن الانفعالات الجماعية في المناسبات الاحتفالية. فخدم ذلك كله انتشار اللغة العربية، لاسيما أن وسائل النقل والمواصلات كانت قد تخطت عهد الدواب والخيل والابل و«الرقّاص «إلى عهد الحافلة والقطار والهاتف والبريد السريع.

في هذه المرحلة بالذات ـ أي ما بين 1912 و 1955 ـ استعربت بعض المجموعات القروية المتوسطة الحجم، كقبيلة غياثة المجاورة لمدينة تازة، واستعرب عدد لابأس به من العائلات الأمازيغية التي هجرت إلى السهول والمدن طلبا للرزق، وكثرت بعثات الطلاب المتوجهة لمصر، من «المنطقة الاسبانية «على الخصوص، وساهمت حتى المدارس المعروفة آنذاك باسم» المدارس الفرنسية

المغربيــة «في تعليم اللغــة العربية لابناء الأعيــان في الحواضر، وتخرجت مــن ثانويات» مــولاي إدريس «بفاس، و«مولاي يوســف «بالرباط و«ســيدي محمــد» بمراكش أجيال مــن الطلبة، قليلة العدد لكنها متينة التكوين في اللغتين العربية والفرنسية. أما في »المدارس الفرنســية المغربية الحضريــة» (écoles urbaines) فكانت حصة المواد العربية لاتجاوز ســاعتين ونصفا في الأسبوع (بدلا من أربع ســاعات في مــدارس أبناء الأعيــان). وفي المدارس »الفرنســية المغربيــة القروية« ــــ التــي كان عددها ضئيلا جدا ــــ كانــت حصــة المــواد العربيــة منعدمــة (1920Bulletin de l'enseigment...) حيثمــا كانــت توجد تلك المدارس. وفي ســنة 1947 ارتفعت حصة المــواد العربية في جميع «المدارس الحضرية الفرنســية المغربية «إلى ســبع ســاعات، ثم ارتفعت إلى تســع ســاعات وعشــر دقائق ســنة 1950، وتقرر في الســنة نفســها مبــدأ إدارج المواد العربية في برامج المــدارس المهنية (07.10 س) والمــدارس القرويــة (08.10س) (1950Horaires- Programmes,) Instructions,). أمــا بإعداديــة أزرو (Le Collège Berbère d'Azrou) فقــد تطــور الوضــع كمــا يلي، فيما يهم الأقســام الثانوية الأربعة: من ســنة 1928 إلى سنة 1935 كانت» البربرية «شــبه إجبارية، وكانــت العربية تُدرِّس من قبــل مدير الاعدادية نفســه (الســيد Roux المبرز فــي الأدب العربي) خــارج الحصص العاديــة، فــي ظروف ماديــة ومعنويــة مزرية، بمعدل ســاعة في الأسبوع. ومن ســنة 1935 إلى ســنة 1941 أدرجت ساعة اللغة العربيــة فــي الحصــص العامة الرســمية. كان مديــر الاعدادية

(الســيد Bisson المجاز في العربية) يلقن فيها مبادئ النحو العربي باللغة الفرنســية، بالاضافة إلى مبادئ الترجمة. في هذه الفترة صارت مــادة اللغة »البربريــة «مادة اختيارية تلقــن خارج الحصة الرسمية العامة. وفي أكتوبر 1941 ارتفعت حصّة اللغة العربية إلى ثلاث ســاعات في الأسبوع، و عيِّن السيد أحمد الأخضر غزال ( ) أســتاذا للمواد العربية، وظلت» البربرية «مادة اختيارية تدرِّس تحت إشــراف» معهد الدراســات المغربية العليا « كما تدرِّس في مراكز أخرى كفاس ومراكش. وابتداء من سنة 1949 صارت حصة المواد العربية أربع ساعات، ثم أحدثت أقسام إعداد الباكلوريا.

حرصنــا أن نثبت هنا هذه المعلومات، فيمــا يتعلق بإعدادية أزرو، لانه كثيرا ما يقال ويكتب في الموضوع أشــياء تمليها مشاعر وطنيــة فــي غير تحــرّ للحقيقة المجــردة. بينما ينبغي أن تســجل للتاريخ حقائق أخرى يُخشــى أن يغمرها النســيان، منها مثلا أن منطقــة الأطالس الثلاثة ظلت خاضعة، طيلة عهد « الحماية«، للحكم العســكري الفرنســي، لا يُتَجَوَّل فيها إلا بإذن، سكانها مجبــرون على تأديــة التحية العســكرية للضباط الفرنســيين، مفــروض علــى كل ذكر بالغ منهــم أن يقوم بالخدمــة الاجبارية في الاوراش لمدة أربعة ايام من كل ســنة؛ ونزلاء سجونها ملزمون بإنجــاز جميع الأعمال الشــاقة التي تخطر ببــال الحاكم، يُصفَّد منهم في الحديد كل من ســوَّلت له نفســه أن يحتج أو يتذمر، ويساق دامي الرسغين، وهو يرسُف في قيوده، إلى مقالع الأحجار وما شاكلها من أماكن الكد والكدح .

4 - الاستعراب يتسارع ويصبح تعريبا مقصودا في نطاق إديولوجيا يكتنفها اللبس.

كان العامل الأول والأقوى في استعراب من استعرب من الأمازيغيين، خلال المرحلتين الأولى والثانية، هو صدق العقيدة الاسلامية وتقديس اللغة العربية والتعلق بالقبلة. وكان طريق الاستعراب هو ممارسة الشعائر الدينية وحفظ القرآن والاحتكاك بمن استوطن المغرب من العرب. لكن عاملا آخر ترتب على وجود العامل الأول، وهو العامل السياسي الاجتماعي . لايخفى أن الاسلام لايفصل الدين عن الدنيا. ومن نتائج ذلك أن كل ممارسة سياسية تستوجب الدعوة باسم الاسلام، وأن مشروعية الحكم والسلطان لايمكن أن تُستَمد إلا من التقاليد الاسلامية. وبما أن التقاليد الاسلامية السُّنِّية تستوجب على المرشح للامامة (أي للحكم) أن يكون قرشيا، فقد صار من المتحتم على كل ذي طموح سياسي أن» يثبت «قرشيته. فتبارى الناس في ذلك »الاثبات« وأنبت المغرب غاباً من» الشجرات القرشية «و«شجرات «الانتماء إلى الدوحة النبوية، التي بها يوصل إلى المكانة الاجتماعية المؤهِّلة لمشاركة» أهل الحل والعقد «في اتخاذ القرار السياسي (Esquisse d'histoire religieuse; Histoire politique du Maroc). وهكذا تتسلسل مواقف الفرد من انقطاعه عن عشيرته الأمازيغية في مرحلة أولى، إلى تعلمه العربية وعلوم الدين، إلى اندماجه في وسط حضري أو قروي غير وسطه الأصلي، إلى إخراجه »شجرة «يعلن بها انتسابه إلى بيت الشرف النبوي، أو على الأقل إلى قبيلة قريش. هذه

الظاهرة لازمت تاريخ المغرب ابتداء من عهد الموحدين. ولاشك أن بوادرها الأولى برزت للوجود في عهد الأدارسة، ولعل تفاقمها هو الذي حمل موسى بن أبي العافية المكناسي على اضطهاد كل من يدعي الشرف. وعلى كل حال، كانت هذه الظاهرة عاملا من أقوى عوامل الاستعراب، تستدرج الأمازيغي من طلب الرزق أو علوم الدين إلى التماس المكانة الاجتماعية أو السياسية، إلى التنكر لأصله .

هذان العاملان المتداخلان، الديني والسياسي الاجتماعي، لايزال مفعولهما ساريا إلى اليوم، لاسيما في الأوساط التقليدية، وقد دعمهما، كما رأينا فيما سلف من القول، عزم المغاربة على مقاومة الاستعمار الأوربي المسيحي خلال الحقبة الممتدة من 1912 إلى 1955. فإلى هذا التاريخ (1955) كانت حركة الاستعراب منذ انطلاقتها الأولى في عهد إدريس الأول، وخلال مراحلها الثلاث التي حددناها، حركة تلقائية توجهها إرادة الأمازيغيين أنفسهم. وكان الاستعراب وسيلة ليس غير. ولما جاء عهد الاستقلال تفجرت الطاقات المكبوتة في طلب العلوم على اختلاف أنواعها، مع ترجيح كفة العلوم الدُّنيوية ـ لأول مرة في تاريخ المغرب ـ على كفة العلوم الأُخروية. فاتخذت السياسة التعليمية شعارات أربعة، هي : التوحيد، والتعميم، والتعريب، و«المغربة«. وتبنَّت الأحزاب هذه الشعارات بتفاوت في الاقتناع بصلاحية مضامينها غير الواضحة. وفي تلك الأثناء ازداد المغرب تأثرا بالمشرق سياسيا وثقافيا. فظهر للعيان شيئا فشيئا أن من وراء شعار التعريب ــ الهادف مبدئيا إلى إقصاء

اللغة الفرنسية من المجال الثقافي ـــ غاية غير مصرَّح بها، هي طمس المعالم الأمازيغية في النسق الحضاري المغربي، وجعل اللغة الأمازيغية منبوذة لا يُهتم بها حتى على صعيد الدراسات النظرية كما هو معمول به في كبريات الجامعات العالمية، وذلك في نطاق دعاية، بل دعايات سياسية يكتنفها اللبس من حيث إنها ترتكز على القيم الاسلامية تارة، وعلى إديولوجيا القومية العربية تارة أخرى، أو حتى على» القيم الوطنية «إذ توهم نفسها وتوهم الجيل الصاعد أن» الظهير البربري «هو الخطيئة الأولى التي ينبغي «للبربر «ان يكفِّروا عنها بالاستعراب السريع غير المشروط. وكثيرا ما تخلط تلك الدعايات (المتضاربة فيما بينها أحيانا) المشاعر الدينية بمشاعر الانتماء إلى» العرق العربي « وتحوُّل الرغبات والمتمنيات إلى تعازيم ترددها صباح مساء لعلها تفي بالمطلوب، كما يتجلى ذلك في عبارتي» العروبة والاسلام «(بتقديم الانتماء العرقي على العقيدة) و«المغرب العربي « (بتأكيد عروبة المغرب خشية أن يحدث في شأنها نزاع). ولما كانت هذه الدعاية تتجاهل بنية المجتمع المغربي السوسيولوجية، وتتناسى تاريخ المغرب وما يتضمنه من عبر لابد من الاعتبار بها، كان من المتوقع أن يصدر رد فعل عن كل مغربي له مشاعر أمازيغية «معقلنة «أو غير »معقلنة «. فنشأ بالفعل تيار فكري تجسم أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، في ظهور جمعيات ثقافية أمازيغية النزعة وقفت منها السلطات السياسية ـــ إلى حد الآن ـــ موقف المنع غير المعلن، سواء في المغرب أو في الجزائر. وهكذا لا تزال عملية» التعريب« متواصلة

يتحمس لمساندتها من يتحمس على مستوى الدولة أو على مستوى الهيئات أو مستوى الأفراد، بما يحتمله التحمس من غفلة عن الواقع، ومن التغاضي عن الحقيقة، ومن ميل إلى التزييف والتحريف، ومن تجاهل لمشاعر الناس. وهكذا أصبح الأمازيغيون لأول مرة في تاريخهم الاسلامي يشعرون بأن هناك إرادة غير إرادتهم الذاتية تدعوهم إلى الاستعراب بالحُجّة العرقية الملفوفة في لفائف الحُجّة الدينية (1).

5 - الوضع اللغوي بعد ثلاثة عشر قرنا من الاستعراب:

اللغة الرسمية في المغرب هي اللغة العربية. ولأمر ما نص الدستور على ذلك، لأن الدساتير عادة تُغْفِل هذه المسألة، باعتبار أن اختيار اللغة معبر عنه ضمنيا. ويستخلص من خطب المسؤولين، من حيث أشكالها ومحتوياتها أن المقصود بالعربية هو الفصحى، لأن ما سواها ما هو إلا» لهجات«. في هذا الاختيار أيضا تأكيد للانتماء العربي. فنتج من ذلك أن فئات من المثقفين عامة، ورجال التدريس خاصة، يتبارون على الظهور بمظهر من ذَلَّلَ الفصحى وجعلها طوع لسانه وقلمه. ونتج من ذلك أن الخطباء المغاربة أصبحوا أشد الناس حرصا على تطبيق قواعد النحو والصرف والاعراب، حتى إن المشارقة يَعجَبون لذلك، وحتى إن بعض المتفصحين يُحرجون الناس ويحرجون أنفسهم بما في مواقفهم الخطابية من تكلف. ثم إن من بين المثقفين من يميل بحكم تكوينه الأول إلى التخاطب والكتابة بالفرنسية. وكثيرا ما يندِّد بسلوكهم أنصار العربية ويعدونهم مُستَلَبِين .

أما الشرائح الاجتماعية العريضة من المغاربة فلغتها المعتادة المنطوق بها عندهم عن سليقة، فإما هي» الدارجة «أي العربية» العامية «التي لا إعراب فيها، وهي لغة مشتركة بين جميع السكان على وجه التقريب، مع ما يطرأ عليها جهويا من تغيرات في الجرس والنبرة والالفاظ؛ وإما هي الأمازيغية المنقسمة إلى ثلاث لهجات رئيسية يتميز بعضها عن بعض بالجرس والنبرة والالفاظ أيضا، والتفاوت في التأثر بالعربية. ولاسبيل في الوقت الراهن إلى إحصاء عدد المغاربة الذين لا يزالون يعرفون الأمازيغية ويتكلمونها يوميا، لأن الدوائر المسؤولة ألغت منذ الاحصاء الثاني للسكان في عهد الاستقلال، الاهتمام بإدراج» البربرية «بين اللغات التي يُحتمل في المواطنين أنهم يعرفونها؛ وإذا صرح أحدهم تلقائيا بأنه يعرفها أجيب بأنها ليست بلغة. وإنما بإمكان الباحث أن يطلع على عدد المغاربة الذين كانوا سنة 1939 يتكلمون الأمازيغية، في منطقة النفوذ الفرنسي إذاك، بجرد ما هو وارد في الوثيقة الادارية التي عنوانها: « .«Répertoire alphabétique des confédérations...

لكنّ ما يهمنا أكثر هنا هو إظهار ما من تطابق بين اختلاف اللهجات العربية المغربية وبين تتابع المراحل الأربع التي مر بها الاستعراب. نجد أولا اللهجة الأقدم نشوءا، وهي لهجة «بني يازغة «(الذين عرفوا قديما باسم» إزغيتن«). هذه القبيلة الصغيرة المنزوية على نفسها بين القبائل الناطقة بالأمازيغية في شرقيّ الأطلس المتوسط، لا تزال تستعمل إلى الآن، أو إلى زمن جد قريب، صيغة المثنى في ذكر اليَدَيْنِ (لْيَدّيْن) والرِّجْلَيْن

(رْجْلَيْن) والعَينين (لْعِيْنَيْن) والأُذُنَيْن (لْوُذْنَيْن)، ولاتزال تستعمل لفظة» لْفَا «بدلا من» لْفُمّ «أي الفم، وحرف القاف منطوقا قافاً. وقبيلة بني يازغة هذه قبيلة» بربرية «الأصل كانت قاطنة في المكان الذي بُنيت عليه مدينة فاس أو في جواره. وقد كانت إلى عهد قريب تدّعي أن أراضي» رأس القُليعة «الواقعة قرب باب فتوح ملك خالص لها فُوِّت عليها بصورة غير شرعية في عهد ما. ويُلْحَق باللهجة اليازغية لهجة جبل زرهون، ثم لهجة قبائل» جبالة «المتعددة. هذه اللهجات لا أثر فيها لقلب القاف كافا معقودة، فيما هو لفظ عربي أصيل، بينما يحدث ذلك القلب في حرف الجيم لسبب يستحق أن يبحث عنه، لكنها لم تتخلص على قِدَم استعرابها من تراكيبها ذات الطابع الأمازيغي، ولا من إعمال القواعد الصرفية الأمازيغية وإسقاطها على التعابير العربية. من الطريف مثلا أن تسمع السقّائين (الكَرابة) ينادون في الأسواق» ها لْما باردين«! . والسر هو أن الماء يُعبَّر عنه في الأمازيغية بجمع لا مفرد له. وبالاضافة إلى هذا تتميز تلك اللهجات بمحافظتها على الكلمات» البربرية« غير معربة الصيغة، كما هو الشأن في» أباريق «أي اللَّطم و» أزدم «أو» تازدمت «حُزمة الحطب، إلخ... وتتميز بجرسها ونبراتها الماثلة عند» جبالة «خاصة في ميل شبه خفي إلى الكشكشة عند النطق بالكاف. وتتمثل المرحلة الثانية من مراحل الاستعراب، أولا في اللهجات المنتشرة في السهول الأطلنتية ونجود» تادلا« و الصحراء الغربية ومناطق أخرى متفرقة حدث فيها اندماج لغوي بين القبائل الأمازيغية والقبائل العربية التي استقدمها

الموحّدون. لكن الاندماج لم يطمس شـواهد الماضي الدالة على الانتمـاءات الأصليـة، بحيـث نجد تلك الشـواهد فـي مُعطَيَيْن اثنين، أولهما أسـماء القبائل نفسـها، أو أسماء البطون وأسماء الأفـراد أحيانـا) دكالـة = دُّووكال؛ مـولاي عبـد الله أمغـار: أيت فـلان وأيت فلان، في قبيلة زعير؛ زمّـور «العرب «المرتبطة عضويا بزمّور»الشـلح«...)؛ وثانيهمـا هو المعجم اللغوي المسـتعمل، لما يوجـد فيه من المفرادت الأمازيغية المعرَّبة (الـزكَاوة؛ المزكَور؛ ركَل إلـخ ...) بتفاوت في الكثرة والقلة بين «تادلا « ودكّالة والشـاوية والغـرب. وقد تجد قبيلة عربية لم تندمـج فيها عناصر أمازيغية كثيـرة، فيلفـت نظرك كونهـا محتفظـة بكثير من أسـاليب التعبيـر الخاصـة بالعربية، نذكر كنمـوذج لها قبيلـة »الحياينة «القاطنة بإقليم تاونات. ولاشك أن ما حدث في البوادي المغربية مـن» اندماج لغوي «قد حـدث في البوادي الجزائرية والتونسـية والليبيـة، وحدث في صعيد مصر أيضا حيث اختلطت، في عهد الفاطميـين، قبائل هـوارة الأمازيغية بمن سـبقها إلى هناك من بقايا القبائل العربية التي هجرت نحو الغرب .

وتتمثـل المرحلـة الاسـتعرابية الثانيـة، ثانيا، في آثـار هجرة المسلمين من الأندلس، بعد سـقوط غرناطة في لهجات فاس وسـلا والرباط وتيطاون وإشّاون (المحرف اسـمها إلى شفشاون). لاشـك أن أفـواج المهاجريـن حملت معهـا من العـدوة الأخرى مفردات وأسـاليب تعبير أثرت في لغات المدن المشار إليها. لكنها لـم تُجرِّدها من تراثهـا الأمازيغي المتمثل فـي ظواهر فونولوجية ومعجمية وتركيبية. وحسـب ما تفيده المقارنة السريعة الأولى،

إن مدينة فاس هي التي حافظت أكثر على ذلك التراث .

وفيما يخص مرحلتي الاسـتعراب الأخيرتين، الثالثة والرابعة، مـن حيـث تأثيرهما فـي تطوير خريطـة المغرب اللغويـة، نقول باختصـار إنهمـا خلقتـا الظـروف الملائمـة لتوحيـد اللهجات العربية، بحيث أصبح الفاسـي يتخاطب في يُسـر مع الدكّالي، وصـار الفيلالي يتفاهم بدون عناء مع »الجبلي«؛ وخلقت نوعا من الترابـط والتفاعل بين «العامية «و«الفصحى «لم يكن معهودا من قبـل بفضل الاعـلام و«التمدرس «. لكنهمـا تميزتا باتجاهين ثقافيين متعارضـين مصطنعين كليهما. تميـزت المرحلة الثالثة (1912-1955) بعمل الفرنسيين من أجل إبراز الثقافة الأمازيغية الأصلية إبرازا مُغرِضاً غير طبيعي (مع السـعي في تفتيت تلك الثقافة نفسها)؛ لكن عمل بعض العلماء اللغويين الفرنسيين (والأوربيـين عامة) المتجرِّدين من كل نية سياسـية أفاد الثقافة الأمازيغية الأصليـة، وأفاد اللغة الأمازيغيـة خاصة، لأنه عرَّفها بنفسـها وبإمكاناتها الذاتية، بحيث لايمكن التغاضي عن نتائج ذلك العمل، ولا يمكن طرحه من ميزان التراث الثقافي» المغاربي». وتميـزت المرحلة الرابعة، أي هذه التي بدئت سـنة 1955 ولم تنته بعـد، بتهميش الأمازيغيـة تدريجيا. فبعد أن كانـت الأمازيغية لغـة يُتخاطب بهـا في أعلى دائرة من دوائـر الدولة منذ أقل من قرن، أصبح استعمالها في نظر بعض رجال القضاء ورجال الادارة والسـلطة على الأقـل، محظورا حتى على من لايعرف سـواها، وذلك تطبيقا لحرف القانـون. وتميزت هذه المرحلة بظهور عقلية» علميـة «يكاد يختص بهـا المؤرِّخون التقليديـون وتلامذتهم من

الطلبة والأساتذة الجامعيين وغير الجامعيين؛ يتوخى المتّسمون بتلك العقلية طمس المعالم الأمازيغية في الشخصية المغربية، ومصادرة ما تمكن مصادرته من إيجابيات التاريخ لفائدة غير الأمازيغيين، وترك سلبيات الماضي» للبربر«. فنشّأوا في هذه العقلية جيل الاستقلال وبالغوا أحيانا إلى أن أملّوا، لكنهم صاروا مدرسة لمن فيه استعداد من المسؤولين الكبار، حتى إن أحد هؤلاء منع على مكاتب الحالة المدنية مثلا تسجيل أسماء المواليد كلّما ظهر أنها أسماء» بربرية «الأصل كـ» إيدر« و«إيزا» و«تودا «. هذا بينما يُغَضّ الطرف عن التجاوزات المخلة بروح الدستور وحرفه، كأن يُكتب أو يُقال في النصوص والخطب الرسمية والشبيهة بالرسمية» المغرب العربي «بدلا من »المغرب الكبير «و«اللغة القومية «أو» اللغة الوطنية «بدلا من» اللغة الرسمية» بخصوص اللغة العربية، مع أن أسباب النزول في اختيار كل من العبارتين» المغرب الكبير» و«اللغة الرسمية « معروفة عند أهل الحل والعقد .

والخلاصة من كل هذا أن مسيرة الاستعراب في المغرب كانت جد بطيئة طيلة اثني عشر قرنا ونيف، وأنها تسارعت شيئا ما في النصف الأول من القرن العشرين بحكم ضرورة التعبئة باسم الدين من أجل مقاومة الاستعمار الأوربي، ثم تغيرت ظروفها الاجتماعية والسياسية في عهد الاستقلال. ولقد كان لبطئها سببان، أحدهما تاريخي، هو انفصال المغرب عن المشرق إثر معركة بكَدورة، وثانيهما جغرافي، وهو ضعف العمران و«التمدن «. فلو كان» البربر» متجمّعي السكن

لتحقق أحد الاحتمالين: إما أن ينمّوا ثقافتهم الذاتية ولغتهم بدافع الشعور القومي، وإما أن يستعربوا بسرعة كما استعرب المصريّون في وادي النيل. وإذا لم يُحقّق لا هذا ولا ذاك، كان عامل استعرابهم النسبي البطيء هو الدين وما يتبع الدين من نواميس السياسة. إن العقيدة الاسلامية هي التي عرَّبت من تعرَّب من الأمازيغيين، كما أن العقيدة المسيحية هي التي» لتّنت « من تَلتّن من الشعوب الأوربية .

خصوصيات الأمازيغيين. ومميزاتهم.

هل للأمازيغيين خصوصيات بصفتهم "برابرا" ليس غير؟

لقد ذهب كثير من المؤلفين في تاريخ أفريقية الشمالية، والأوربيون خاصة منهم، إلى أن الأمازيغيين كانوا دائما، ولايزالون يميلون إلى الفوضى، وبالتالي إلى التخلص من قبضة كل سلطان يريد تنظيم أمورهم. فنتج من ذلك تتابع الثورات والفتن، بغير انقطاع، في مواطنهم، وتعرُّضُها المستمر للهجمات الآتية من الخارج. ويعزى ميلهم هذا في نظر أولئك المؤلفين إلى... طبيعتهم الأمازيغية التي انفردوا بها. وهذا ليس بتفسير علمي، بل هو تفسير نظري محض صادر عن حسن نية أو عن رغبة سياسية. والواقع الملموس، الذي يلمسه كل من أتيح له أن يدرس تواريخ الأمم مقارنة من زوايا مختلفة، هو أن طبيعة أفريقية الشمالية الجغرافية هي التي كيَّفت في العمق المجتمع الأمازيغي وجعلت منه مجتمعا أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة والتمدُّن؛ وذلك بحكم عاملين اثنين، أولهما اختلاف المناطق خصبا وجدبا، وبرودة

ودفئا، وغزارة أو قلة في الماء، باعتبار تتابع الفصول، ثم وجود» هامش «صحراوي شاسع وراء الأطالس الثلاثة، وجُود داخلية شبيهة بالجرداء. وثانيهما هو اجتياح القحط والجفاف مناطق معيَّنة لمدة معينة، أو مناطق مترامية الأطراف على مدى سنوات، وهو ما يسمِّيه صاحب» الاستقصا «بـ» توالي المجاعات والانتجاعات «(ج. 4 ص 67). هذان العاملان هما اللذان تسببا في استمرارية نمط العيش الاستنجاعي، الذي تسبب بدوره في استمرارية النظام القبلي في جل الأقاليم، لأن النظام القبلي هو المواتي لحياة الحل والترحال الجماعيين. وعلى النظام القبلي ترتب ما ترتب من الخصوصيات في التقاليد الاجتماعية، التي تؤثر بدورها في طباع الأفراد. من تلك الخصوصيات مثلا الميل إلى التقشف ورفض حياة البذخ والتنعم. ومن تلك الخصوصيات الحرص على إقرار مبدإ المساواة بين أفراد العشيرة وبين العشائر في نطاق الكيان القبلي، وعلى إقامة أعراف يُتَعَارف عليها في التساكن والتعايش والتعامل في سياق الانتجَاع المستمر. ثم على مراعاة العصبيات التي هي ضمان القدرة على الدفاع عن المصالح المشتركة في حدود آفاق القبيلة المكانية والزمنية، أو على أحسن تقدير، في حدود آفاق حلف من القبائل المتجاورة. ومن هذا كله يحصل توازن اجتماعي نسبي وغير قار يكون في أغلب الحالات هو الحائل دون قيام نظام سياسي قوي، مركَّز في المكان، طويل البقاء في الزمان. وفي ضوء هذه الاعتبارات يُبحث عن أسُس الديموقراطية المحلية» البربرية «، وعن سر قدرة الأمازيغيين على مواجهة القوى الأجنبية بعدم الاستسلام لها

حتى عند توالي انتصاراتها الحربية أو السياسية. وفي ضوء هذه الاعتبارات يُدرك السبب الذي من أجله كان» البربر «في العهد الاسلامي يرغبون عن اتخاذ الحَكَم من ذويهم وبني جلدتهم، ومن أجله كان كل ذي طموح سياسي منهم يتنكر لانتمائه القبلي ولانتمائه الأمازيغي (Histoire politique du Maroc).

الديموقراطية المحلية كانت قائمة على مبدإ المساواة بين أفراد العشيرة وبين العشائر التي تجمعها قرابة الدم، ثم بين بطون القبيلة الواحدة أو بين القبائل المتجاورة، ولكن مع مراعاة توازن القوى. لا ينتدب لتمثيل الجماعة في دواليب هذا الحكم الديموقراطي نواب يُعيِّنهم الاقتراع، ولكن يُنتدبُ له الشيوخ الذين ترشِّحهم مكانتهم الاجتماعية و قدراتهم. كان رؤساء العشائر يتهربون من تحمل المسؤوليات نظرا لما يتبعها من التكاليف التي لايجزى عليها بأي تعويض. ولذا كانت مجالس الشورى تحار لا في الفصل بين مرشحين للمناصب بانتخاب أحدهم، ولكن في إيجاد من يقبل تحمل المسؤولية. وكان المجلس يضطر أحيانا إلى اختيار عضو غائب عن قصد أو عن غير قصد، فيأتيه في بيته للالحاح عليه كي يقبل منصبا ما. كانت المناصب الرئيسية، عند قبائل الرحل وأنصاف الرحَّل هي الآتية: القيادة في الحرب، والريادة في الاستنجاع، وعضوية مجلس القضاء. وكانت ريادة الاستنجاع تعوَّض عند أهل المدر بالأمانة على شؤون القرية. كان الرائد يسمى» أمغار نـ توكَا = شيخ المرعى «والقائد» أمغار نـ تيريت = شيخ الاستنفار«، والعضو في مجلس القضاء» أمزَّارفو «أو» أنزَّارفو«، والقضاء الجماعي»

أزرف«، والأمين على شؤون القرية» أنفلوس«. كان القائد يُعيَّن عند نشوب الحرب، تنتهي مهمته بانتهاء الحرب. وكان الرائد يُعيَّن لمدة سنة، من فصل ربيع إلى فصل الربيع الذي يليه. أما عضو مجلس القضاء فكان يُعيَّن لمدة غير محدودة لا تنتهي عادة إلا بوفاته أو باستقالته لعذر مقبول. كان تنظيم الانتجاع يقتضي من» شيخ المرعى «أن يكون عارفا لأماكن الكلأ في تسلسلها بين الجبال والسهول، أو النجود والبراري، ولأهمية مساحتها ونوعيتها وما هو منها ملك خاص، وما هو مشاع (أمردول = المرعى الشاسع؛ ألمو = المرعي الخصب المخضر؛ أزنيكـَ = البقعة فيها كلأ؛ أكَدال أو أوْدال = المرعى المحظور). وكان فوق هذا ينبغي له أن يكون ديبلوماسيا قادرا على التفاوض بنجاح مع شيوخ القبائل الأخرى عند المنازعات. أما القائد» شيخ الاستنفار «فكان ينتخب لابالتصويت المرجح لرأي الأغلبية، ولكن بالتعيين المتفق عليه بالاجماع من بين الشجعان الذين لهم سوابق في إصابة الظن والاشارة بالخطة الحربية المناسبة. كان يفوَّض إليه الأمر كله يوم القتال؛ أما شؤون التعبئة والاستعداد فمن اختصاص مجلس الشورى. وكان من المفروض في كل مرشح للعضوية في مجلس القضاء أن يكون ملما بتفاصيل الأعراف والتقاليد التي تستنُّ بها القبيلة، وملما كذلك بالشريعة الاسلامية في خطوطها العريضة، قادرا على الاجتهاد حتى يسهم مع زملائه في حسم القضايا التي هي من باب النوازل حسماً يُغني» فقه «الأعراف. ومما تجدر الاشارة إليه أن بعض القبائل تتفق على إنشاء مجالس مشتركة بينها تقوم مقام محاكم الاستئناف،

وأن التقاضي كان يوجب على المتقاضين استعمال تعابير معينة لاشعار المجلس الابتدائي، في لباقة، بأن حكمه مرفوض، واستعمال تعابير أخرى لاشعار مجلس الاستئناف بأن عليه المعوَّل بصفته المرجع النهائي.كانت أحكام مجلس الاستئناف تنفَّذ غالبا بفضل ضغط أعيان القبيلة على المحكوم عليه. كانت المنازعات التي تعرض على مجلس القضاء لا تختلف في شيء عن المنازعات التي تشجُر في المجتمعات الرعوية، أو في المجتمعات القروية من أجل الكلأ والماء والخصومات المتعددة الأسباب، وحراسة البساتين وتحديد الحقول المزروعة. كانت قضايا القتل العمد من أكثر المسائل استعصاء على الحل، وكانت تعالج بالطريقة التي تعالج بها عند البدو الرحَّل في كثير من مناطق المعمور(Le prix du sang...8 à14). كان القضاة يجتهدون في تقدير التعويض عن الجروح اجتهادات تختلف من قبيلة إلى أخرى ومن سنة إلى سنة باختلاف الأوضاع الاقتصادية. كان التعويض عن الجرح في الوجه يحدد عند» أيت عطا «مثلا بالطريقة الآتية: يقف أحد القضاة أمام الجريح ـــ بعد أن يكون الجرح الذي في وجهه قد التأم ـــ ثم يسير القهقرى رويدا رويدا إلى أن تتعذر عليه رؤية الندبة، أي اثر الجرح. فيتوقف ويقيس أحد القضاة الآخرين ما بينه وبين الجريح من عدد الخطوات. ثم يُصدر مجلس القضاء حكمه بأن يعوِّض المجني عليه عن جرحه. فإن كان رجلا حُكم له بأخذ ما يساوي عدد الخطى غنما. وإن كان امرأة حُكم لها أن تأخذه بقرا .

هذه الأوضاع القبلية كانت سائدة في المجتمع التقليدي

الأمازيغي إلى منتصف القرن العشرين. والغالب أنها لم تتغير كثيرا منذ العصور القديمة. ولقد كانت مصدر قوة وضعف في آن واحد. كانت مصدر قوة لأنها حالت دون قيام أي نظام فيُودالي كالذي عرفته أوربا ودون قيام أي نظام طاغوتي كالذي عرفه وادي النيل لمدة ثلاثة آلاف سنة، ودون قيام أي نظام قيصري ولا كسروي. ولذا لم يُستعبد» البربر «قطٌّ استعبادا جماعيا. وحتى إذا برزت لهم في الأفق قوة تدعي الجبروت ناوشتها القبائل بدون انقطاع أو رحلت عن منطقة نفوذها متحيِّنة الفرص للانقضاض عليها وكسر شوكتها عاجلا أو آجلا. وكانت مصدر قوة نِسبيَّة مكّنت الأمازيغيين من مواجهة الهجمات الاستعمارية التي توالت على أفريقية الشمالية ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد. ذلك لأن حياة البداوة تمنع الشعوب من الركون إلى التنعم والاسترخاء، من جهة، ولأن المهاجمين كانوا يجدون أمامهم دائما مقاومة سريعة التنقل من ناحية إلى ناحية، غير ملتزمة بقرار رئاسة مركزية؛ فإذا استسلمت قبائل لاذت قبائل أخرى بالجبال أو بالصحراء لتنطلق منها بعد حين وتنغص على المستعمر مقامه وتجعله دائما في موقف الدفاع إلى أن تذهب ريحه مع الزمان وتبقى الأرض لأهلها. ومما لاشك فيه أن الشعور المبهم بالانتماء العرقي أواللغوي المشترك كان يضمن مستوى أدنى من التآزر بين القبائل في مواجهتها للأجنبي الدخيل. وكانت مصدر قوة نِسْبيَّة لأنها عاقت عمليات المثاقفة التي تلاحقت على أرض المغرب الكبير عن بلوغ مداها في أيِّ عصر من العصور، رغم طول الزمن، فمكنت اللغة الأمازيغية من البقاء. مكنتها من البقاء

في حالة متردية، لكن في حالة قابلة للانتعاش، بينما صارت إلى خبر كان عشرات من اللغات التي عايشتها وعاصرتها في القديم، كالمصرية القديمة واللاتينية والفنيقية والغالية وغيرها .

لكن، من جهة أخرى، كانت تلك الأوضاع مصدر ضعف ملحوظ، لأنها أوّلاً جعلت الأمازيغيين، بصفتهم أمة، في مواقف الدفاع عن النفس في جل حقب التاريخ، مع ما كان يتوفر لهم من القوة الحربية الكمينة في عدد قبائلهم وفي تعوّدهم حياة الشظف. كانوا يهاجمون في عقر دارهم، ولم يكونوا قادرين على التكتل العسكري الذي تنبع منه الرغبة في التوسع على حساب الغير. وكانت مصدر ضعف لأنها منعت قيام أي دولة مركزية يسمح لها طول بقائها بتنظيم الأمة في عمق كيانها، ولو مع مصادرة جزء مهم من الحريات، وبإنشاء حضارة مادية رفيعة متميزة. وكانت مصدر ضعف، بما أن امتناع» البربر «عن السماح لأية فصيلة منهم بالسيطرة والتعالي كان يضطرهم إلى تحكيم غيرهم في شؤونهم، إما على مستوى الدول وإما على مستوى الأفراد، إلى أن صار ذوو الطموح السياسي منهم، بسبب ذلك، ينتحلون الأنساب غير الأمازيغية كي يَسْتَتِبَّ لهم الأمر؛ فعل ذلك ابن تومرت وعبد المومن بن علي والسلاطين المرينيون وغيرهم، كما فعله من قبلهم يوبا الثاني إذ كان يدّعي ويُرسِّخ في أذهان الناس أنه من سلالة البطل اليوناني الأسطوري» هرقل (Hercule, Heraklês) « (Gsell, VIII, 237). وكانت تلك الأوضاع مصدر ضعف، لأنها حالت بين الثقافة الأمازيغية الذاتية وبين النمو والازدهار، وأبقتها على حالتها

المناسبة لنمط العيش القبلي المائل إلى البداوة، فوجدت تلك الثقافة نفسها في تنافس وتبار مع ثقافات أكثر نموا، وسلّمت لها بالتعاقب على شغل مجالات التحضر والتمدن.

وهكذا يمكن القول إن» البربر «لم يكن لهم الاختيار بين المسار الذي ساروا فيه منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبين مسارات أخرى، ولكن جغرافية مواطنهم الطبيعية هي التي رسمت لهم معالم ذلك المسار، بما فرضته من أساليب الاسترزاق وما يترتب عليها من ظواهر الدّور والتسلسل بين تقاليد المجتمع وطباع الأفراد في التفاعل مع بيئة ليست بصريحة الخصب ولا بصريحة الجدب، تجود حينا وتبخل حينا. تضاريسها متجزئة، ومناخها مائل إلى الجفاف مطبوع بالمتناقضات التي من جرائها يستمر انجراف التربة، إذ لا غطاء نباتي ينظّم توزيع المياه بين الانصراف والتسرب إلى الجوف، ولا» أفق أول، premier horizon «يسمح بظهور غطاء نباتي متماسك ذي شأن. وما على المرء، إن هو أراد أن يلمس هذه الظواهر والمظاهر شاخصة للعيان، إلا أن يُمعن النظر في المناظر التي يمكنه أن يشاهدها من الطائرة، في تتابعها من وسط أوربا إلى جنوبيِّ المغرب، إذا ما أتيح له السفر إلى المغرب يوم صَحْو من أيام الصيف أو الخريف أو الشتاء .

أما ما نبت فوق الأراضي» المغاربية «من حضارات مستوردة، فيرجع سبب ازدهاره ازدهارا نسبيا إلى كونه نُقلة فُصلت عن حضارات احتضنت نشأتها وترعرعها أراض أخرى بطبائع جغرافية أخرى، ربّت شعوبا أخرى، إما بخصبها المتواصل ووفرة أسباب التكاثر والتماسك والتكاتل فيها، وإما بقساوتها الداعية

إلى التطلع والتشوف إلى سواها.

ويبقى لنا مع ذلك أن نلتفت ونلفت الأنظار إلى خصوصيتين أمازيغيتين، علاقة إحداهما بالبيئة ونمط العيش ظاهرة، وسبب وجود الأخرى غير واضح. الخصوصية الأولى هي الجنوح إلى التمسك بالراديكالية في الاختيار والسلوك والنظر، ومنها نتج تبنّي الدوناتية المسيحية في العصر القديم، ثم تبنّي مذهب الخوارج في العصر الوسيط، والانفراد بالمالكية، وبها يمكن تفسير صرامة ابن تومرت وصرامة تلامذته من الموحدين الأول، ويمكن تفسير ميل أفراد إلى الصلاحية والنسك المفرطين، وميل آخرين إلى الشعوذة والنّصب والسّطو والتشغيب. والخصوصية الثانية هي ازدراء الاطناب في القول والفخفخة والتبجّح، شأنهم في ذلك شأن الاسبارطيين القدماء (التاريخ العالمي للتربية.l'Histoire Mondiale de l'Education, I, 142...). وعنها صدر موقف يوسف بن تاشفين إذ أمر كاتبه بأن يقتضب الجواب على الرسالة المطولة التي كان ملك أستوريا» ألفونسو «السادس قد بعث بها إليه مُحَذراً له قُبيل يوم الزلاقة. هذه الخصوصية قد تبلورت عند الأمازيغيين في مَثَل سائر قديم يقول» المتبجح القوّال لا يفعل، والفعّال العامل لا يقول = ونّا يُتّينين وُرا يُتكَّا، وُنّا يُتكّان وُرا يُتّيني .

خاتمة

إن من الضروري أن نشير في هذه الخاتمة إلى ظاهرة لايمكن الباحث الجاد أن يغفل عنها حينما يستعرض مصادر التاريخ الأمازيغي، ولايجدر به أن يستنتج النتائج من المقدمات إلا بعد وضع تلك الظاهرة في الميزان. ألا وهي انعدام وجهة النظر الأمازيغي واحتكار خصومهم أو شركائهم لرواية أحداث التاريخ والتعليق على الأحداث. إننا لانعرف عن» بربر «عهد قرطاجة وعهد روما وعهد» بيزانتا «إلا ما رواه الفينيقيون واليونان والرومان أنفسهم، ولا نعرف عن «بربر «عصور الإسلام الأولى إلا ما رواه لنا المؤلفون العرب. ولا نعرف عن «بربر» العهود المتأخرة من التاريخ الحديث، بين القرن السادس عشر والقرن العشرين الميلاديين، إلا ما رواه لنا أعوان السلطة المركزية أو المقرّبون للسلطة، ولا نعرف عن» بربر «المقاومة المسلحة التي تصدّت للفرنسيين بين 1912 و 1934 إلا ما رواه الفرنسيون وكتبوه. ومما يوهمه غياب الأمازيغيين في كتابة التاريخ أنهم لم يحضروا في صنع التاريخ إلا حضوراً هامشيا. ولعل هذه »المحاكمة الغيابية «التي حوكموها هي سبب إدانتهم في غير موقف، لأن حججهم كانت معهم كما يقول المثل العربي. ومن حقهم اليوم أن يطالبوا بالتعقيب على

ما أصدر بشأنهم من الأحكام في ضوء ما جدّ من أساليب النقد لدى من يزاولون بنزاهة مهنة التنقيب عن ماضي الشعوب (L'histoire sous surveillance). لقد تفطن أحد المؤلفين اللاّتينيين القدماء ـــ مع كونه لاتينيا ـ إلى بعض شطحات المؤرخ »سالوستيوس، «Sallustius صاحب المرجع الأول الذي يُرجع إليه في دراسة عهد «يوكَرتن،Jugurtha » وقال فيه إنه» إنسان دنيء «مجرد من كل نزاهة فكرية (les Berbers,1,65,note 4). فهل دُرست نصوص ابن عبد الحكم في» فتح المغرب «دراسة نقدية شاملة بصفتها المصدر الأول لأخبار» البربر «عند دخول العرب أفريقية الشمالية؟ وهل حاول مؤرخ ناقد أن يستنبط من المتون ما كان من الدوافع النفسية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، وراء التحامل على» البربر «من قبل مؤلفين عرب مشارقة وأندلسيين أمثال ابن حوقل، وابن حزم المسيحي الأصل، وياقوت الحموي الرومي النسب؟ فمما يثير الشك في أن المشارقة يستطيعون أن يعالجوا قضايا المغرب التاريخية بما يقتضيه البحث العلمي من موضوعية، أنهم يصدرون أحكاما جاهزة في مسائل كثيرة دون فحص دقيق لمعطياتها. هذا محمد رشيد رضا يرجح في كتابه» الخلافة والامامة العظمى« الرأي القائل بأن سبب توقف الجيش الاسلامي في جنوبي فرنسا راجع إلى كون أكثر الجنود» بربرا «، دون أن يفسّر كيف استطاع أولئك الجنود أن يفتحوا الجزيرة الأيبيرية الشاسعة في ظرف وجيز، ودون أن يشير إلى الاستياء والتذمر الذي أثاره سلوك الولاة الأمويين في أوطان أولئك الجنود. وهذا الأستاذ الكبير حسن إبراهيم حسن، رحمه

الله، يحكم تلقائيا بأن الشر في النزاع بين العرب و«البربر» في الأندلس، لايمكن أن يصدر إلا عن» البربر«، وذلك عند قوله: «وما كاد شرُّ البربر يزول من الأندلس، حتى قام النزاع بين المضرية واليمنية... «(تاريخ الاسلام، ج 1، ص 322). وهذا أمين الريحاني يبدي سروره، في أحد مؤلفاته، من كون شيخ إسباني» يفرق بين العرب والمغاربة «. أما رأي المشارقة المحدثين في ابن خلدون فيتجاذبه الاعتزاز بكون ذلك المؤرخ الفذ عربيا والاستياء من» إدانته للعرب ومحاباته للبربر«. هذا المؤرخ عبد الله عنان يكتب «...ينتمي (ابن خلدون) في الواقع إلى ذلك الشعب البربري الذي افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم... «. وهذا فؤاد أفرام البستاني» يفند زعم طه حسين «أن ابن خلدون نفسه كان يشك في نسبه العربي. وهذا أبو خلدون ساطع الحصري يتمحل لاثبات عروبة ابن خلدون بالادعاء أن ابن خلدون إنما كان يقصد بـ «العرب « الأعراب (دراسات عن مقدمة ابن خلدون). ويتغافل عما جاء في المقدمة نفسها، يُظهر أن ابن خلدون كان يميِّز جيدا بين مفهومي» العرب» و«الأعراب«، لأن تكوينه الديني كان يتطلب منه ذلك (المقدمة، ص 216، 217 ؛ معجم الفاظ القرآن الكريم، مادة: عرب).

إن الغاية من كل ما تقدم في هذا المقال من تحليلات وملاحظات ليست هي الدعوة إلى جلو صفحات التاريخ الأمازيغي وإعادة كتابتها على حساب الموضوعية العلمية، ولكن الغاية هي لفت النظر إلى أن التاريخ بصفة عامة لايمكن أن يقال بشأنه إنه علم ما لم يُعْفَ من القيام بالدعاية لعرق أو

لقومية أو لوطنية أو لاديولوجية فلسفية، وبالاحرى ما لم يلتزم بالحياد التام، وما لم يتخلص من أسلوب الأدبيات ولم يتوخ الدقة والايجاز اللذين يفرضهما تقصي الحقائق في غير لبس للحق بالباطل ولا للواقع بالأسطورة أو الخيال .

المراجع البيبليوغرافية ملاحظة:

كان القصد من كتابة هذه الفصول هو تقديم نظرة شمولية عن تاريخ الأمازيغيين، مع ما فيه من استمرارية. وبما أن من المفروض أن للقارئ العربي المسلم دراية بتاريخ» البربر» في العهود الاسلامية، لقد اقتُضِبت الفقرات المتعلقة بتلك العهود اقتضابا؛ بينما تُوُسِّع في التعريف بتاريخ أمازيغيِّي ما قبل الاسلام. لهذا نرى أن عدد المراجع الأجنبية في هذه البيبليوغرافية أكثر بكثير من عدد المراجع العربية.

-1 المراجع العربية:

- ابن ابي زرع: روض القرطاس.
- ابن خلدون، المقدمة، الجلد الأول من تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958.
- ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والاندلس، تحقيق عبد الله الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1964.
- ابن عبد العظيم الازموري: بهجة الناظرين وأنس الحاضرين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم 1501.
- ابن مرزوق التلمساني، محمد: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بوعياد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـ/ 1981.
- الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هانري بيريس، الجزائر، دار الكتاب، 1957.

- أمرير عمر: الشعر الأمازيغي المنسوب الى سيدي حمو الطالب، الدار البيضاء، مطبعة التيسير، 1987.
- الجزنائي، علي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس.
- الصافي، مومن علي: أوسّان صمّيدنين، مطبعة الأندلس، 1983.
- حسن، ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، الجزء 1، ط. 7
- القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1964.
- ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط. موسّعة، القاهرة، دار المعارف، 1953.
- شفيق، محمد: الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلحة في الاطلس المتوسط وشرقي الاطلس الكبير، مجلة الاكاديمية، عدد4، 1987/1408.
- عبد الرزاق، محمد اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب
- الدار البيضاء، دار الثقافة، 1976.
- مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم.
- مستاوي، محمد: ئسكراف، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1976.
- مستاوي، محمد: تاضصا د-يمطّاون - الدار البيضاء، دار الكتاب، 1979.
- الناصري، أحمد بن خالد: كتاب الاستقصا، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954. 2

- المصادر الأجنبية أو المكتوبة بلغة أجنبية:

- *AGNOUCHE, Abdellatif - Histoire politique du Maroc, Casablanca -Afrique Orient 1987.*
- *AKKACHE, A - Tacfarinas - Alger, S.N.E D., 1968.*
- *AYMARD, André, AUBOYER, Jeannine - Histoire générale des civilisations, Paris : P.U.F., 1967 - Vol. I, II.*
- *BAILLY, A :*
- *Dictionnaire Grec-Francais, 11 ème Ed. - Paris : Hachette, 1894.*
- *BASSET, André - La langue berbére - Paris : E. Leroux, 1929.*
- *BASSET, André - Quelques considérations sur la langue berbère*
- *Revue du monde non-chrétien, n° 11, Juil.-Sept. 1949, 12 p.*
- *BENABOU, Marcel, - Juba II ou l'Africanité vassale de Rome, In Les Africains, Paris: Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 141-165.*
- *BENABOU, Marcel - La résistance africaine à la romanisation, Paris, Maspéro, 1976.*
- *BENABOU Marcel - Tacfarinas : Insurgé berbère contre Ia colonisation romaine, in Les Africains - Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 293-313.*

- BERNARD, Jean - Le sang et I'histoire - Paris, Buchet-Chastel, 1983.

- BERTHIER, André - La Numidie, Rome et le Maghreb, Paris, Picard, 1981.

- BOUCHENAKI, Mounir - Jugurtha : Un roi berbère et sa guerre contre Rome, in Les Africains - Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 165-191.

- BOUKOUS, A. - Le profil sociolinguistique du Maroc, B.E.S.M, n° 140, 1979, pp 5-31. numéro spécial : Culture populaire marocaine.

- BRUNNEL, Pierre, JOUANNY, Robert: - Les grands écrivains du monde, Paris, F. Nathan, 1976.

- Bulletin de I'enseignement public au Maroc, n° 24, Octobre 1920, pp. 302-438. - CAMPS, Gabriel. - Berbères : Aux marges de I'histoire - Toulouse, Hespérides, 1980.

- CESAR, Jules -- Guerre d'Afrique / Texte établi et traduit par A. Bouvert - Paris, Les Belles Lettres, 1949.

- CHABOT, J. B. - Recueil des inscriptions libyques.-Paris, Imprimerie Nationale, 1940-1941.

- CHAFIK, Mohammed. - En ce qui concerne les noms de Masinissa et Jugurtha, in franssich Heute, Frankfurt, Juin 1984 (Spécial Maghreb).

- CHELHOD, Joseph. - L'Arabie du Sud, Paris,

Maisonneuve, 1984.

- CHOTTIN, Alexis. - Tableau de la musique marocaine, Paris, Geuthner, 1939.

- COHEN, Marcel. - Pour une sociologie du langage, Paris, A. Michel 1956.

- DECRET, François, FANTAR, Mhamed. - L'Afrique du Nord dans l'antiquité, Paris, Payot, 1981.

- DRAGUE, Georges. - Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris, J. Peyronnet, 1951.

- EDON, Georges. - Dictionnaire Français-Latin, 13e Ed., Paris, Librairie Eugène Belin, 1939.

- ELISSEEFF, V., NAAUDOU, WIET, G., WOLFF.

- Histoire du développement culturel et scientifique de l'humanité, Paris, UNESCO, Vol. III.

- Encyclopédie Berbère - Aix-en-Provence : EDISUD, 1987, Volume IV.

- FERRO, Marc. - Comment on raconte I'histoire aux enfants, Paris, Payot, 1981.

- FERRO, Marc - L'hitoire sous surveillance, Paris, Calmann-Levy, 1985.

- FOUCAULD, Charles de - Dictionnaire Touareg-Français, Paris, Imprimerie Nationale, 1951, 4Vol.

- FOURNEL, Henri. - Les Berbers, Tome 1. Paris,

Imprimerie Nationale, 1879.
- GAFFIOT, Félix. - Dictionnaire Latin-Francais - Paris, Hachette 1934
- GALAND, Lionel. - Langue et Littérature Berbères- Paris, C N.R S., 1979.
- GSELL, Stéphane. - Histoire ancienne de I'Afrique du Nord - Paris, Hachette, 1920 - 1928 , 8 Vol
- HANOTAUX, G. - Histoire dé la Nation Egyptienne - Paris, Plon, 1935 -1940, 7 Vol. - Horaires, Programmes, instructions- Rabat, Direction de I'Instruction Publique, 1950.
- JACQUES-MEUNIE, Dj. - Greniers - citadelles du Maroc. - Paris, Arts et métiers, 1951, 2 Vol.
- JACQUES-MEUNIE, D. - Le prix du sang chez les Berbères de l'Atlas - Paris, Imprimerie Nationale, 1964.
- JULIEN, Charles-André. - Histoire de I'Afrique du Nord - Paris, Payot, 1986, 2 Vol. - LAOUST, E. - Cours de berbère marocain - Paris, Geuthner, 1939. - LAOUST, E. - Siwa : son parler - Paris, E. Leroux, 1931. - LEFEBVRE, Gustave - Grammaire de I'Egyptien classique. - Le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1955.
- LOCQUIN, Marcel. - In Science et Vie. n° 31, juin 1980. - MAMMERI, Mouloud. - Les Isefra : poémes

de Si Mohand ou Mhand. - Paris, Maspéro, 1982.
- MANDOUZE, André. - Prosopographie de l’Afrique chrétienne. - Paris, C.N.R.S 1982. - MANDOUZE, André. - Saint Augustin, 354 - 430 : Une africanité en question, in Les Africains, Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1978, pp. 73-103. - MARCAIS, Georges. - Les Arabes en Berbérie du 11e au 14e siècle, Paris, E. Leroux, 1913, 771 p. - MARCY, Georges. - Introduction à un déchiffrement méthodique des inscriptions tifinagh du Sahara central. - Hesperis, 1r - 2e trim. 1937, pp. 89 - 118. - MARCY, Georges - Les inscriptions libyques bilingues. - Paris, Imprimerie Nationale, 1936. - MEILLET, A., VENDRYES, J. - Traité de grammaire comparée des langues classiques - 5e Ed., Paris, Honoré Champion, 1979. - MIALARET, Gaston. - Histoire mondiale de l'éducation - Tome 1, Paris, P.U.F., 1981. - PERETI, Luigi - Histoire du développement culturel et scientifique de I'humanité, Paris, UNESCO, Vol. II. - PLINE L'ANCIEN. - Histoire naturelle, Livre V /Texte établi et commenté par Jehan Desanges, Paris, Les Belles Lettres, 1980. - RACHET, Marguerite. - Rome et les Berbères. - Latomus, revue d'études latines, Bruxelles, 1970. - RENISIO, A. - Etudes sur les dialectes berbères. - Paris, E. Leroux, 1932. - Répertoire alphabétique des

confédérations de tribus, des tribus, des fractions de tribus et des agglomérations de la zone française de l'Empire chérifien au 1er novembre 1939. - Casablanca, 1939 - 1017 p. - REYGASSE, Maurice. - Contribution à l'étude des gravures rupestres et inscriptions tifinagh du Sahara central, Alger, J.Carbonnel, 1932. - REYNIERS, F. - Taougrat, Paris , Geuthner, 1930. - RI N N, Louis. - Les Origines berbères, Alger, A. Jourdan, 1889. - ROGET, Raymond. - Le Maroc chez les auteurs anciens - Paris, les Belles Lettres, 1924. - SAINT-QUENTIN, Louis de. - 3000 ans avec les Berbères - Paris, Delagrave, 1949. - SALLUSTE. - Bellum Jugurthinum/Texte établi par Alfred Ernout, Paris, les Belles Lettres, 1971. - SILIUS ITALICUS. - La guerre punique, Tome 1, livres I-IV /Texte établi et traduit par Pierre Minoconi et Georges Devallet, Paris, les Belles Lettres, 1979. - TLATLI, Salah-Eddine. - La Carthage punique - Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Maisonneuve, 1978.

بيان بشأن بعض الصور المدرجة بين صفحات هذا الكتاب

بعض الصور المدرجة بين صفحات هذا الكتاب مقتبسة من مؤلّف «كَابريال كامبس، Gabriel Camps»: «أمازيغيون، Berbères» Toulouse, Hespérides, 1980. (وقد شجّعني على هذا الاقتباس علمي أن الأستاذ «كامبس» يخْدِم تاريخ "المغارب" من أجل نشر المعرفة المستقصية للبحث عن الحقائق التاريخية).